

سلسلة أعلام الفكر العالمي





زولا

تأليف: مارك برنار

ترجمة: غالية شعبان

امیل زولا

الطبعة الاولى
تشرين اول (اكتوبر) ١٩٧٨

سلسلة أعلام الفكر العالمي

اميل زولا

تأليف : مارك برنارد
ترجمة : غالية شملي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً : موكيالي ، بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

فهرست

في بلدة اكس ، حتى الثامنة عشرة من عمره

رأى اميل زولا النور في باريس ، في الثاني عشر من نيسان عام ١٨٤٠ . كان والده ايطاليا ووالدته فرنسية . اقام فرنسوا زولا المهندس ، في مقاطعة اكس ، حيث عمل في بناء قناة كانت ستحمل اسمه .

خلال اقامته في باريس ساعيا للحصول على دعم وتأييد تنفيذ مشروعه ، التقى بفتاة في التاسعة عشرة من عمرها تدعى اميلي ــ اورلي اوبير . وكان فرنسوا يبلغ حينها الثالثة والاربعين من عمره . فلم يتوان بالاقتران بها .

كان اميل باكورة زواجهما . رأى النور في منزل استأجره والده في شارع القديس يوسف القريب من شارع مونمارتر .

أسلم فرنسوا زولا الروح في اكس عام ١٨٤٧ . كان اميل في السابعة من عمره حين وافت والده المنية . انتمى الى مدرسة نوتردام ثم انتقل بعدها الى كلية اكس . اخذ يعزف

على المزمار في التطواف الاحتفالي . انكب فجأة على تحصيل العلم ، بعد اهماله للدرس ، وحاز على معظم الامتيازات في امتحانات نهاية العام الدراسي .

كانت للقرية ذكريات في طفولته ومراهقته وتركت الاثر الفعال في نفسه رغم زياراته النادرة لها . لم يكن مخلصا لهذه الروابط مثل بول ارين وألفونس دوديه . غير انه ما انفك يذكر نزهاته في بلدته اكس برفقة سيزان وباي . وغالبا ما عاوده الحنين الى هذه الحياة الريفية . وكثيرا ما صوّر القرويين في مؤلفاته ، وظل وفيا لصداقات حداثته .

وقعت المناظر الطبيعية في نفسه موقع الاعجاب والافتتان فأضفت الرونق على صفحاته .

اعتبر القرية نوعا من الواحة ، من الفردوس الحقيقي . جال في ضواحي بلدته اكس برفقة اصدقائه . اغتسل في نهر الارك ، ونقب في المغاور والكهوف ، فتذوق طعم الحرية في جولاته هذه حتى انه يشعر بالاسى والحزن احيانا عندما تعود به مخيلته الى تلك الايام الغابرة . وكم انطلق بأجنحة خياله من مكتبه الوضيع الى رحاب بلدته المحببة اكس .

اكسبته الطبيعة الشغف بالادب وكان تأثيرها في نفسه اكبر وقعا من دروسه العادية في الكلية . اعجب حينها بلامرتين ، وهوغو وموسيه . وعُرف عنه ولعه بالمذهب الرومنطيقي .

محاولاته الاولى في باريس

سيطر البؤس على منزل فرنسوا زولا بعد وفاته ، وأرغم مدام زولا الى النزوح الى باريس . كان اميل آنذاك في الثامنة عشرة من عمره . قصد معهد القديس لويس طالبا العلم مع رفاقه هنري دوروشفور والطالب الذي امسى فيما بعد الجنرال دوغليفي . لقبه اقرانه « بالمرسيلي » بسبب لهجته . اخفق في نيل شهادة البكالوريا العلمية فعاد الى بلدته اكس حيث قضى العطلة الصيفية هناك . غير انه عاود الكرة وتقدم للامتحانات في بلده مرسيليا هذه المرة . بلا جدوى ... لم يحالفه الحظ ايضا بسبب اللغة الفرنسية ... خذلت مدام زولا ويئست ، لم يكن بوسعها ان تتحمل مصاريف الكلية اكثر من ذلك ، يجب على اميل ان يبحث عن عمل ما . التحق بالجمارك في دوك نابليون حيث تقاضى ستين فرنكا شهريا . غير ان هذه الحياة الجديدة لم تستهوه .

اخذ يراسل اصدقاءه في بلدة اكس لانه احس بالوحدة في وسط باريس . وهذا ما يؤكده في رسالته الى باي

المؤرخة في ٢٣ كانون الثاني من عام ١٨٥٩ ، والتي يشرح فيها حاجته الى كسب معيشته . كم ارهقته هذه المسألة .

كتب قائلا : « لقد نوهت لك في رسالتي السابقة عن عزمي على الالتحاق بعمل اداري في اقرب فرصة ممكنة . غير ان مأربي لم يتحقق . لقد حكم علي بالفشل طيلة حياتي ، سأقضي كل ايامي أتلف نفسي على كرسي . تراءت لي هذه العواقب الحزينة ، وسرت فشعريرة غريزية في جسدي . ولحسن الحظ اعاقوا سقوطي في الهاوية . لقد فتحت عيوني وتراجعت مذعورا سابرا غور الهوة ، مشاهدا الصخور والطين التي تنتظرني في القاع . كم قاسيت من حياة المكتب ! جلت بنظري في جميع الجهات طالبا المشورة والعون ... »

... غير ان الجوع كان له بمثابة الشورى الفضلى : ما زلت انفق على والدتي التي تكفي نفسها بالجهد . اني مرغم على البحث عن عمل وآمل ان اجده عاجلا . هذه هي حالتي، كسب قوتي بأية وسيلة ، واذا رغبت تحقيق احلامي يجب ان اعمل خلال الليل لتأمين مستقبلي . سيكون الصراع مريرا وشاقا غير اني لا اهابه . اشعر بشيء في قرارة نفسي سيرى النور عاجلا ام آجلا !

يكتشف زولا ان كسب القوت ليس بالوسيلة السهلة : اني ارغب ان تكوّن فكرة واضحة عن حالتي المادية . يساورني القلق والشك بالنسبة للمستقبل . الاحق الوظائف بدأب وجهد ، لقد تقدمت بطلبات كثيرة . لكن دون جدوى ... لا

تعلم مدى صعوبة الحصول على عمل . ولا يرجع ذلك لمتطلباتي الخاصة ؛ لقد خسرت كبريائي وزهوي الآن .

ها هو اخيرا في نيسان عام ١٨٦٠ ، كاتب في ادارة الجمارك يتقاضى ستين فرنكا شهريا . لم يكن هذا ليسره . كشف اميل عن حسرته الى صديقه باي قائلا :

« اما بالنسبة لي ، تمضي الايام متشابهة ، مضجرة . عندما اجلس الى منضدتي لا ادري ما اكتب ، استغرق بالنوم وانا صاح ، فتشع فجأة ذكرى جميلة في خاطري ، ذكرى ايامنا السعيدة وكلفنا بالمناظر الخلابة ، فينقبض قلبي . ثم ارفع راسي واشعر بالحقيقة المريرة ؛ الحجرة المعفرة ، حيث تتكدس الاوراق الرثة ويزدحم الكتّاب الاغبياء ؛ اسمع صرير الريش الممل والكلمات الحادة الكريهة والعبارات الشاذة الغريبة ؛ وتلقي الشمس اشعتها على زجاج النافذة وكأنها تسخر مني وتبلغني ان الطبيعة خلابة في الخارج والطيور تزقزق بفرح ، والازهار تبعث بالاريج الزكي . اغمض عيني برهة واشاهدكم انتم يا اصدقائي . ثم يتلاشى الحلم وتظهر الحقيقة اكثر مرارة فأمسك بريشتي واحس برغبة جارفة بالبكاء » .

لم يكن اميل ليتحمل هذا « العالم من الكتّاب السخفاء » طويلا : يتقدم باستقالته بعد مضي شهرين . يقضي فترة وجيزة من التشرد في مسكنه ويقتات بالخبز المغمس بالزيت .

لم يستسلم زولا لليأس قط رغم هذه الفترة العسيرة

من حياته وفشله في دراسته . لانه يؤمن « بشيء ما » في داخله وهو مستعد لابرازه مهما كلفه الامر .

اخبر باي انه اتم اول عمل نثري له في كانون الاول من سنة ١٨٥٩ :

« اني لا اقابل احدا وتبدو الامسيات طويلة . ادخن بكثرة ، واكب على المطالعة واكتب القليل . غير اني انجزت كتابة قصة « عاملات القرى » .

غمرني السرور وانا احكي هذه الحماقات . لكني غير راض عن عملي : كانت المادة شاقة ؛ والاحداث تتلاحق دون علاقة وروابط وحل . كان الوقار والسلوك الادبي يعوزاها ؛ وكم نأت ادوارنا عن ادوار ابطال الرواية ...

... غير ان عدم الرضى لم ينل من ثقته بنفسه :

« لم يخمد الالهام في نفسي ؛ ان مخيلتي تحلق بي بعيدا » . وهو يلخص في رسالة بعثها الى باي المهنة التي ظل وفيا لها :

« سيخالج الشك نفسي اذا لبثت مجهولا ؛ الفوز والنجاح يعظمان فقط افكار المؤلف . المهم ان استمر بالعمل جاهدا لكسب شهرة عالمية . ما زلت يانعا واذا ألحقت بي الاشهر الاخيرة الاذى وجرت علي القلق وابادت اوهامي فلن تفلح في القضاء على موهبتي الشعرية » .

غالبا ما يتكرر ذكر هذا الموضوع المتصلب في تلك

الحقبة من الزمن . كتب في ايار من عام ١٨٦٠ :

« لقد ذكرت لك ان سعادتي تكمن في سكينة نفسي وجسدي والسكينة الخارجية . واذا بدت لك هذه الاماني مناقضة لاملي الآخر ، وهو الشهرة والمجد الادبي ، اضيف اني سأتطرق الى هذا الموضوع ثانية . ذلك انك لا تدرك ، بلا شك ، الافكار والهواجس التي تخلقها في نفسي كلمة اديب » .

كما يذكر بعد ذلك بقليل ، هذه الاسطر التنبؤية :

« اما بالنسبة للمستقبل ، فاني اجهله ؛ اذا وددت اتخاذ الادب كمهنة دائمة ابغي اتباع شعاري : كل شيء او العدم ! غير اني لا اريد ان اسير على خطى احد . وهذا لا يعني اني لا اطمع بلقب زعيم مدرسة ادبية ، لكني ارغب في سبر اغوار جديدة لم يكتشفها احد من قبلي والنأي عن جماعة الكويتبيين المعاصرين » .

وما سيحققه بعد عشر سنوات وهو تأليف فريق مع فلوبير ولوغونكور وألفونس دوديه ، يعرضه منذ الآن لباي وسيزان :

« ان الفرض من هذه الشركة هو تأليف فريق قوي يؤازر بعضه البعض ويتحمل مشاق المستقبل . ما زلنا حديثي السن والحياة لنا ، أليس من الافضل ان تتشابك ايادينا قبل الانطلاق وان نشعر خلال صراعنا بصديق يساندنا ويكون بريق الامل في ظلام الليل البشري ؟ »

غير انه بلا شك لا يعلم ما كتبه فيما بعد . فباي ينتمي الى المذهب الواقعي ويحاول زولا جاهدا ليظهر له ان هذه الفكرة خاطئة :

« ما اثار غضبيٰ آنفا تصميمك واصرارك على عدم تفهم فلسفتي . لقد قلت لك دون جدوى : « ان الحقيقة كئيبة ، ان الحقيقة قبيحة ؛ فلنحجبها وراء الزهور ؛ ولنبتعد عنها قدر المستطاع ؛ فلنأكل ولنشرب ولنشبع شهواتنا . ولكن لتنعم نفسنا بحصتها ، وليضفي الخيال علينا السعادة » . كنت لا تنفك من القول اني اهيم في الخيال ولا الحظ ما يزعجني . وكيف لا ألحظه ، بربك ! اني اشيح بنظري عن القذارة لكي اتأمل الازهار ، وهذا لا يعني انكاري لفائدة الزبل الذي يساهم في تفتح براعم الزهور النضرة ، بل تفضيلي للورود القليلة المنفعة . هكذا ارى نفسي تجاه الواقع والمثالية. اني ارضخ للواقع بمقتضى الطبيعة ؛ غير اني اسارع في الفرار من هذه الكتلة العامة العادية وأتيه في عالمي الخاص » .

يتلكأ باي باعتناق مبدأ صديقه الايديالي ، فيحاول زولا اقناعه مرة ثانية :

« عندما نقلقل الحمأة والطين ، تعلق بعض الشوائب بأيدينا ؛ وحين نتغلغل في الحقول ونتيه فيها في بزوغ الشمس نعود واريج الازهار يفوح منا : والشاعر الهجاء الذي لا يلمح الا عادات الرجل الحقيرة يرثي في النهاية لحالهويزدري منه ثم تستولي عليه الكراهية ؛ تنقلب سخريته الما ؛ وتمسي

رغبته في الاصلاح الى ارب بالتنكيل . وكلما تعمق شعر بالطين وتصلب وفقد قلبه كل رحمة وشفقة . فتنطلق صرخته الاخيرة وكأنها تجديف » .

وبينما يشن حملته ضد مذهب الواقعية ، ينتقل زولا غالبا من مسكن الى آخر . . .

« أقطن حاليا شارع القديس اتيان نمرة ٢١ . انه منزل صغير كان يشغره برناردين دوسانت بيار قبلي حيث الف معظم اعماله . انه مسكن يليق بشاعر » .

يتدثر بغطاء صوفي في فصل الشتاء لانه لا يملك ما يشتري به فحما للموقدة : ويتشبه هكذا « بالرجل العربي » . لا ينفك يفكر بمستقبله ؛ ينظم قصائد رديئة ؛ ولا يسمو بمشاعره :

« اني اعيش حبا عذريا منذ خمسة عشر يوما . انها صبية ، بائعة ازهار تطل بالقرب من منزلي ، تمر تحت نافذتي مرتين يوميا في السادسة والنصف صباحا والثامنة مساء . انها فتاة شقراء ظريفة انيقة لطيفة . أترقب موعد مرورها دوما : تقبل وترفع بطرفها نحوي ؛ نتبادل نظرة ثم ابتسامة ؛ هذا كل شيء » .

لقد اثر منزل برناردين دو سانت بيار على مخيلة زولا . وسيطر عليه التشاؤم . فأخبر صديقه سيزان بذلك .

« لا اعلم حقا اي قدر يلاحقني في اختيار مقري . اقمت

في اكس وانا طفل في مسكن « تيار » . قدمت الى باريس وكانت اول حجرة اقطنها حجرة « راسبايل » ؛ لا ادري كيف انتقلت من الطابق السابع الذي كلمتك عنه في الربيع واخترت منزلي الحالي . انها لتحفة نادرة . انها مبتكرة وفريدة . تطل نافذتها على الشمال والاخرى على الجنوب . تمتد المدينة من حولها » .

غير ان تصرفات سيزان وباي خيبا آماله ولم يتجاوبا معه . فكلما يعرض عليهما زولا التعاون والتـآزر يثوران ، يتباطآن ، ويرفضان هذه الفكرة .

منذ ذلك الحين ترتسم خطوط طبعه العريضة : شغفه بالعمل ، الارادة ، الثقة بالنفس والتوق الى الصراع . هـذا المتفكر النشيط هو رجل قصير البصر ، عريض المنكبين ، ذو بنية قوية ، اخرق ، لديه عيب في النطق اذ يلفظ حرف « السين » بحرف « الفاء » .

مدير النشر والاعلان

التحق زولا بدار النشر « هاشيت » في شباط عام ١٨٦٢ ليكسب معيشته وليقترب من العالم الادبي . عمل أولا في توظيب الرزم . ها هو الآن على اول درجة من سلم النجاح والشهرة ؛ فليتقدم اذن . انه يستعد لذلك دون اضاعة الوقت سدى . لا يلبث طويلا حتى يصعد الى الطابق الاول حيث يراس قسم الدعاية . لم يكن يأمل ان يرفض نشر قصيدته . غير انها استأثرت باهتمام السيد هاشيت الذي رفع من اجره . فأصبح اميل يتقاضى مئتي فرنكا شهريا .

ومما عاد عليه بالمنفعة هي تجربته التي اكتسبها في بيع مؤلفات اصدقائه . مكنته وظيفته الجديدة من اقامة علاقات مع بعض الادباء اللامعين آنذاك : غيزو ، لامرتين ، ميشله ، ليتره ، سانت بوف . وغالبا ما كان تان يتردد الى هذه الدار حيث يتلقى خطابات القراء الذين يبعثون بآرائهم ومقترحاتهم حول كتابه الذي يتناول تاريخ الادب الانكليزي . ويواظب ايضا على الحضور روائيون اقل شهرة امثال اميدي، آشار ، فرنسي راي .

يكتشف زولا ان الادب مهنة ايضا وتجارة ، وان قيمة العمل الفني لا تكفي ان تعود بالنفع على مؤلفها دون وساطة الدعاية والحذاقة ولباقة العلاقات . غير ان الشك كان يساوره قليلا . ها هو الآن يتقرب من هؤلاء الادباء بعد ان كان تائها في غمرة القراء ، انه يصغي اليهم ، يتحسس قلقهم يتلقى شكاواهم ، ويتلقن منهم افضل الامثلة لبيع كتاب . انه بالفعل تلميذهم ووسيطهم . لن تضيع هذه الامثولة سدى .

لا يذعره هذا الاكتشاف . ألف العمل وكل الوسائل المستعملة حسنة لانها تؤدي لهذه الغاية وهي ترويج بيع الكتاب . كم هو سعيد بعمله هذا : يخلع كل اديب القناع عن وجهه ويسقطه عند عبوره عتبة المبنى . زولا يصغي ، يتصرف ويحفظ في ذاكرته . لم يأمل الادباء قط ان هذا الفتى البالغ الثانية والعشرين من عمره سيتفوق عليهم جميعا ويبلغ عدد طبع نسخ رواياته ارقاما هائلة خيالية لا يجرؤون الحلم بها ، وتبلغ شهرته ونجاحه التجاري والادبي حدا مذهلا في ذلك العصر يجعله منافس هوغو ؛ غير انه في هذه الاثناء ، يبعث بمراسلين الى الصحف لكي يمدحوا ويطروا على مزايا روايات اميدي اشار او فرنسي راي الاخيرة .

استغل اميل الفرصة السانحة ، فبينما كان يروّج مطبوعات الآخرين عمل ايضا على ترويج مؤلفاته . لن يكتب من الآن وصاعدا الا بالنثر .

استعفي من الخدمة العسكرية . وهكذا سمحت له الظروف ان يعمل بسكون بقصصه « الى نينون » التي أتم

وضعها وهو في الرابعة والعشرين . رفض ثلاثة ناشرين هذه المخطوطة ، غير ان اميل لـم يتخاذل كـان مصرا على تذليل العقبات .

حين قصد السيد لاكروا بادر بالقول : « لقد رفض ثلاثة ناشرين هـذه المخطوطة » . اعجب لاكـروا بهذه الصراحة والجرأة اذ ان اميل اضاف : « لدي موهبة كبيرة » . قالها دون غرور وبصراحة متناهية وهذا ما جعل لاكروا يقتنـع ويقبل المخطوطة .

لم ينتم زولا الى تلك الفئة من الناس التي تترقب الثروة والشهرة تدق ابوابها وهي مكتوفة الايدي : كان عليه ان يعمل بجهد وطيبة خاطر . ولى زمن الاحلام والاوهام والخيال . ان الجمهور ينتظر هنا ويجب العمل لكسب صداقته . انه يتوق الى ارتقاء سلم المجد ولا يخالجه الشك في ذلك لحظة ؛ لـم يتردد ولم يتقاعس قط . انـه يدرك مراده ويعمل المستحيل للحظي به والفوز .

قدم صديقاه باي وسيزان للقائه في باريس . اخـذ يوجه رسائله حاليا الى انطوني فالابريغ الذي ما لبث في بلدة اكس . لقد تبدل اسلوبه بكتابة رسائله . تجرد مـن الثرثرة المراهقة ، اضحى اكثر وضوحا والحاحا . كان اميـل يدعي الكسـل :

« اني اكتب اليك على عجلة من امري ولا يعود ذلك الى تراكم العمل ، لكني اريد دوما ان افرغ من العمل الذي شرعت

به لكي اشعر بعدها بالفراغ » .

نلاحظ هنا ان هذا الكسل ليس عاديا . لم يخطىء فالابريغ اذ ان زولا اردف مؤكدا ومحددا :

« لا اعلم اذا كنت ستصدقني : غير انه لم يكن بوسعي ان اجيب على رسالتك قبلا ، ويعود ذلك الى ضيق الوقت احيانا . من السهل شرح كل ذلك بأزمة من التكاسل . ليس لكسلي النشيط ، كما يطيب لك ان تدعوه ، اي شأن في هذه المناسبة » .

وحين عاتبه صديقه لتأليفه عملا ذا طابع شخصى ، اجابه زولا قائلا : « هيا ، اجبني صراحة ؛ حين ستمسي شهيرا سيذاع صيتك في جميع الانحاء » .

ما اسهل هذه العبارة القيمة التي تفوه بها نابليون الادب :

« أتعلم ما كنت انادي عندما اصل الى عتبة بابك ، حين تخطيت اول درجة : « كتب ، مؤلفات ! »

كان ينتهز الفرصة حينها ويعرض كتابه على القراء :

« لقد خضت المعركة وكان الظفر حليفي . لقد قبل هتزل بمجلد قصصي ؛ سيظهر هذا المجلد في بداية تشرين الاول المقبل . كان الصراع وجيزا . ما زلت على السدة والطريق شاسعة وقد تزل قدمي ايضا . المهم انه يجب ان اخطو الى الامام وسأسير قدما » .

... غير ان هذه « القصص الى نينون » التي لا تعبر عن مقدرة الكاتب المذهلة نادرا ما تثير التناقض . لم يمض وقت طويل حتى سارع زولا الى ايضاح ما دعاه « بنظرية الشاشات » :

« اننا نشاهد الخلق في العمل ، من خلال رجل ، من خلال مزاج وشخصية فردية . والصورة التي تتكون وتنعكس على هذه الشاشة الحديثة هي وليدة وحصيلة اشياء وافراد يتمركزون ما وراء هذه الشاشة . وسيتغير هذا التكوين كلما تدخلت وتوسطت شاشة جديدة ما بين بصرنا والابداع . تنطبق هذه النظرية ايضا على الزجاج المختلف الالوان التي تهب الاشياء حياة متعددة ايضا . والعدسات المقعرة والمحدبة تشوه الاشياء وأشكالها » .

ادت به هذه النظرية الى نقد ما سيفعله فيما بعد بنفسه : « يُعتبر كل مذهب مخالفا لانه يأفك بالطبيعة متبعا قواعد معينة » . وبعد ان كان يلوم صديقه باي على اتباع الواقعية منذ اربعة اعوام نراه الآن يتهكم عليها وهذا رأيه فيها :

« ليست الشاشة الواقعية سوى لوح زجاج بسيط دقيق ، صاف ، تدعي ان الصور تخترقها وتظهر جلية صريحة . وهكذا ، ليس هناك أي تغير في الخطوط ولا في الالوان . انه عرض دقيق ، نزيه وساذج . فالشاشة الواقعية تنكر وجودها الذاتي . ويا له من زهو وافتخار . ومهما ادعت

هذه الشاشة فانها موجودة ولا تستطيع حينها ان تتباهى بجعل الخلق في اطار من الحقيقة الباهرة العظيمة . ومهما كانت دقيقة وصافية فلديها لون خاص وصفة معينة ؛ انها تضفي على الاشياء لونا ، وتبدل اتجاهها . اوافق بطيبة خاطر انها تعطي الصور الحقيقية الصحيحة ؛ وانها تتقن التكوين . من الصعب تعريف ووصف شاشة تكمن ميزتها الاساسية في عدم وجودها ؛ غير اني اعتقد صحة حكمي عليها بقولي ان ذرة من الغبار تعكر صفاءها . وكل شيء يمر من خلالها يفقد قليلا من بريقه ونضارته . تتوافر الخطوط وتبالغ في اتساعها . وتبسط الحياة فيها بسخاء ، انهـا حيـاة مادية ، بطيئة متثاقلة » .

وسرعان ما يتخذ مكانه كزعيم قادم للمدرسة الطبيعية :

« اني اميل الى الشاشة الواقعية ؛ انها تقنع ادراكي وتهبني مشاعر عظيمة من المتانة والحقيقة . لكني ما انفك اردد اني لا ارضى بها كما تعرض علي . لا اعتقد انها تمنحني صورا حقيقية ؛ اؤكد على انها تملك ميزات خاصة باستطاعتها تشويه الصور ، وبالتالي تجعل من تلك الصور اعمالا فنية . غير اني استحسن طريقة ممارستها وهي أن تنتصب بكل نزاهة حيال الطبيعة وان تعبر عنها بمجملها دون تبديل » .

يعمل زولا في الوقت نفسه على نجاح كتابه التجاري :

... « اعمل جاهـدا للحصول علـى الدعاية الكافية لمجلدي وآمل ان يحالفني الحظ . شكرا لك يا رب ، لقد

اوشك كل شيء على نهايته : فالكتاب تحضر اللمسات الاخيرة فيه حاليا ، واعلاناتي حررت في الصحف :

اني اترقب » .

وهو يشغر اوقاته بجد ونشاط :

« انك لا تدرك مدى انهماكي ؛ لقد شرعت بعمل شاق : انصرف عشر ساعات كل يوم الى المكتبة ؛ احضر مقالا اسبوعيا يتراوح بين مئة ومئة وخمسين صفحة الى« الصحيفة الصغيرة » ، ومقالا آخرا الى مجلة « مرحبا ايها الجمهور » ؛ واهتم حاليا بكتابي الذي رقد طويلا في الدرج . اني اتقاضى عشرين فرنكا من « الصحيفة الصغيرة » وستين فرنكا من « مرحبا ايها الجمهور » . وهذا ما يعادل مئتي فرنكا شهريا . تمهد الصحافة لقائي الاسبوعي مع عدد كبير من القراء . ادرك مدى اهمية هذه الصفحة في مجال الادب ، واعلم انها تعود على محررها بالشهرة السريعة » .

. . . وحرصا منه على جعل فالابريغ يدرك مغزى جهوده ومساعيه لخص زولا فكرته كالتالي :

« ارغب بمضاعفة دخلي واتمنى ان اكتسب شهرة عالمية ، فلتعاوني السماء ! »

غير انه آثر عدم الاعتماد على هذا العون الالهي : فتبنى وسيلة في العمل اتبعها باخلاص حتى النهاية :

« يجب ان اسير الآن دون توقف . يجب ان تنشر الصفحة كيفما كانت حسنة او رديئة . تغمرني لذة حقيقية بنأيي عن الجموع ، ويخالجني شعور من القلق كلما تساءلت اذا ما كنت املك القوة الضرورية وسأصمد في مركزي طويلا » .

وبما ان فالابريغ شاعر قروي فانه ما زال يعتقد ان القيمة الادبية تكمن في العمل الفني بحد ذاته . غير ان زولا يعيده الى الواقع الاليم قائلا :

« لو تعلم يا صديقي العزيز ، ان الفوز لا يعتمد على الموهبة لتخليت عن اليراع والقرطاس ، وانكببت على دراسة الحياة الادبية والبحث عن الوسائل الكفيلة بفتح ابواب المجد على مصراعيها ، ومن التمتع بحظوة ونفوذ الآخرين ، والقساوة التي تجعلك تحطم اترابك الاعزاء » .

وتتكرر هذه الفكرة دوما :

« أتفهم قصدي جيدا ، وتنصت الي ؟ اننا جزعون نأمل الفوز السريع ـ فلماذا لا نجهر بذلك ؟ ـ يجب ان نكد ونجتهد في سبيل الظفر .

اني ادرك ان اللامبالاة عظيمة وفاضلة : غير اننا ننتمي الى عصر يفرض علينا ان نطأ الآخرين خشية ان يحطموا اجسادنا الفتية » .

لم تصادف مدام زولا وابنها الا المتاعب في بلدة اكس

منذ وفاة فرنسوا زولا . لقد ابلغ فالابريغ صديقه ان المجلس البلدي قرر تغيير اسم قناة زولا .

« انك تبلغني انهم سينزعون اسم زولا عن القناة التي انشأها والدي . ارجو ان تحدد في رسالتك التالية : في اية ظروف تمت رغبة تغيير الاسم وكيف . يجب ان تدرك اني لا اعلق اهمية كبرى على الشهرة الضئيلة التي يعود بها اسم نقش على جدار : اني قادر على بناء جدران كثيرة اذا تطلب الامر ذلك . لكن هذا ما يمليه علي الواجب ، واذا كانت هناك ضرورة بارسال جواب ما سيكون للاحتجاج فقط » .

اختتم زولا الذي كان يحلم بالفعل بمجد آخر بهـذه العبارات :

« تمرس بالشجاعة يا عزيزي فالابريغ ، كلي امل . مـا زلنا حديثي السن والمجال واسع امامنا » .

لن يثني عزيمته اي شيء من الآن وصاعدا . ولن يحد من نشاطه الا المنية . الف رواية في السنة وغالبا في مجلدين دون ذكر الروايات المسرحية والاعمال النقديـة والمواضيع الصحفية التي لا تحصى .

من سنة ١٨٦٦ حتى نشوب الحرب

ظهر كتاب « قصص الى نينون » عام ١٨٦٤ ، و « اعتراف كلود » عام ١٨٦٥ ولم يلقيا حظا وافرا لدى النقاد . وفي سنة ١٨٦٦ اخبر زولا بعزمه وقراره الى فالابريغ : « ترك مكتبة هاشيت والتفرغ كليا الى الادب » . ويلمح هنا لاول مرة عن شغفه بالمسرح الذي غالبا ما خذله واشقاه :

« سأترك عملي في المكتبة في اواخر شهر كانون الثاني. سأبدل عملي في المكتب بتحرير بعض الكتب التي اوصتني بها هاشيت . سأعتني بالمسرح ؛ لقد فتحت امامي الآن ابواب الناشرين ؛ن غير اني لا املك قصة جاهزة ؛ سأكرس وقتي لهذا العمل الذي يعود علي بالنفع المادي والشهرة . اني اثق بنفسي وسأسير قدما . »

غير انه لم يمر وقت طويل حتى ادرك زولا انه اخطأ بالنسبة لمقدرته وانه لم يكن لينافس ناقشي النثر وانه يضيع وقته سدى في محاولة مجاراة موسيه او غوتيه ؛ ثمة مهمة

أشق تنتظره . تستولي عليه الهواجس الواقعية . لقد دنا منها في قصته « اعتراف كلود » . غير انه تجاوز هذه الخطى الى الابد في كتابه « تريز راكين » بعد مضي اربع سنوات على نشر « قصص الى نينون » . وكان يبلغ حينها ثماني وعشرين سنة .

لقد اتجه اتجاها معاكسا لموسيه وهوغو ، تخلى عن الرومنطيقية التي تعلق فؤاده بها في صباه . سار على خطى بلزاك ، ستندال ، ديرانتي ، فلوبير . امسى الواقع وسيلة للعيش بعد ان كان يمقته .

وبينما هو منهمك في تأليف « تريز راكين » ، عرض عليه العمل في كتابة رواية متسلسلة ضخمة تتناول غوامض مرسيليا . فأخبر فالابريغ بهذا العرض في ١٩ شباط ١٨٦٧ :

« يجب ان تعلم اني سأباشر عملا عظيما في مجلة « وسول البلدة » التي تصدر في مرسيليا ؛ سأنشر رواية طويلة ابتداء من اول آذار : غوامض مرسيليا التي تتناول عرضا للدواعي الجنائية الحديثة . تتراكم الوثائق حولي ؛ ولا اعلم كيف سأستطيع ابراز عالم من هذا الخواء . لن يدر علي هذا العمل الكثير من المال ؛ لكن آمل بشهرة واسعة في منطقة الجنوب . وافقت على هذا العرض محشوثا بالصراع والعمل الذي ذكرته آنفا . ان الاستحالات والصعوبات تستميلني . اني اهوى الحياة واعتقد ان الانتاج مهما كان، افضل من الراحة . وهذا ما يدفعني الى قبول الكفاح والصراع مع

نفسي ومع القراء . ابلغت انهم سيوزعون مناشير ، وسيعلقون اعلانات علـى الجدران . واذا ما علمت شيئا يثير الاهتمام بشأن روايتي ارجو ان تذكره لي » .

وعندما لامه فالابريغ علـى شروعه بعمـل غير جدير بموهبته كتب اليه زولا هذا الرد :

« اني بحاجة للجمهور وادنو منه كما استطيع ، سأعمل ما بوسعي للسيطرة عليه . يعوزني المال والدعاية حاليا » .

غير انه لم يعلق آمالا كبيرة على قيمة روايته المسلسلة هذه . ما يحز بنفسه بالواقع هو قصته « تريز راكين » التي يطلق عليهـا اسـم « دراسته البسكولوجية والفيزيولوجية العميقة » .

« اعمل على تأليف ثلاث روايات في الوقت نفسه : الالغاز وقصة جديدة لصحيفة المصور، ودراسة بسكولوجيةلصحيفة القرن التاسع عشر . وكم انا مسرور من عملي هذا ؛ لانـي اعتقد انه افضل ما قمت به حتى هذه اللحظة . اخشى ان يكون عسيرا ويرفضه « هوسيه » في آخر لحظة . سيظهر هذا التأليف في ثلاثة اجزاء: لقد اتممت الفصل الاول وسينشر في شهر ايار . تلاحظ اني اعمل بهمة ونشاط . اظل منكبا على منضدتي من الصباح حتى المساء » .

ويتحدث عن مشاريعه الى فالابريغ ثانية في ٢٩ ايـار ١٨٦٧ :

« يغمرني السرور لاني سأصدر روايتي البسكولوجية والفيزلوجية في مجلة « القرن التاسع عشر » . ستكون بالتأكيد افضل ما انتجت » .

لا يكتفي زولا بالاعتراف الى صديقه فحسب فهو يتحلى بالنزاهة التي تعتبر من افضل ميزاته . وحين يعرض مقالاته الصحفية على ألفونس دوشين معاون السيد فيلموسان في « الفيغارو » ، في ١١ نيسان عام ١٨٦٥ ، يعبر عن مشاعره باخلاص كما وكأننا به يكتب الى فالابريغ :

« اسمح لي أن اقدم نفسي بنفسي ، لاني لا احبذ حماية احد .

لقد اصدرت مؤخرا مجلد اخبار لاقى الاعجاب والاستحسان ، واني انشر بحثا ادبيا في مجلة « مرحبا ايها الجمهور » . وانشر مقالات في « الصحيفة الصغيرة » هذا هو عملي .

أرغب في مضاعفته والنجاح العاجل . خطرت ببالي صحيفتك لانها ستؤمن لي الشهرة الوشيكة . اني اقصدك وابعث اليك ببعض الصفحات النثرية واسألك بصدق : ايلائمك هذا ؟ اذا لم تقع شخصيتي لديك موقع الرضى فلينته كل شيء بيننا . اما اذا لم ينل المقال استحسانك فاني قادر على تغييره .

ما زلت فتيا يانعا واعترف اني أؤمن بمقدرتي . ادرك

انك تهوى ان تنشىء محررين جددا . فلتكن هذه تجربة بيننا وسيكون النجاح حليفك » .

لم تلبث ان اثمرت جهود زولا . استطاع اخيرا ان يقيم في شقة تليق بـه هو وزوجته . وقد اخبر صديقه كوست بهذا النبأ في رسالة بعثها اليه في ٢٦ تموز من عام ١٨٦٦ :

« لم اعد اقطن في شارع كلية الطب . اني اقيم حاليا مع زوجتي في شارع فوجيرار نمرة ١٠ قرب الاوديون . انه منزل رائع يتألف من غرفة طعام وغرفة نوم ودار ومطبـخ وغرفة للاصدقاء . اننا مستعدان لاستقبالك تو عودتك » .

غير انه ما زال بعيدا عن الاستقرار الذاتي . لم يكتف بما ناله من انتصارات ادبية :

« اني مسرور بما فعلت حتى هذه اللحظة . غير اني تواق الى الافضل » .

غير ان زولا رأى نفسه مرغما على المحافظة على مركزه. ورغم ان كتابه تريز راكين حظي باهتمام النقاد ، ظل بعيدا عن الجمهور الذي طالما ترقبه وتاق الى نيل اهتمامه به . لم يخط الا قليلا مع صدور قصته مادلين فيرا في سنة ١٨٦٨ .

لقد فقه مهنتـه واتخذ مـن طريقـة تأليف « ألغـاز مارسيليا » وسيلة له في الكتابة . انتقى قصصا تدور حول موضوع اساسي استخلصه من الوثائق التي وفرت له : لقد شرع بتأليف سلسلة روغون ـ مكارت حاشدا هنا ايضا قبل

كل رواية جميع انواع الملاحظات والدلائل التي تتعلق بذلك الوسط او غيره مما سهل عليه مهمته . فما كان عليه الا ان يصف هذا الوسط . ويرجــع عدوله عــن المبالغة بالاعتناء والتأنق في الاسلوب الى تأليف هذه القصة المسلسلة . لقد ادرك انه بعيد عن الافراط بالاهتمام بالاسلوب مما حدا به الى التخلي عن الكمال المطلق بالتفصيل لصالح تأثيرات المجموعة والقيم الكلية المجملة . واذا بدا الشكل في ابهى حلته فان عجلة التقدم ما انفكت تسير ببطء .

روغون ـ مكارت

ان الانتقال من رواية الى اخرى دون اية روابط تجمع فيما بينها ، والبحث عن مواضيع جديدة، لا يليق بمقام زولا . اذ ليس هذا بمبتغاه ومراده .

وقع تأثير بلزاك بليغا في نفسه . لقد وجد فيه ضالته ؛ كم يتوق هو ايضا ان يبتدع كوميديته الانسانية ، غير انه يجهل كيفية الشروع بها . توفر لديه النموذج غير انه ما زال يفلت من قبضته . وهو يترقب ان تسنح له الفرصة لكي يتمكن منه . فهو لا يجرؤ على الاقدام عليه خشيــة اتهامه بالاقتداء بالكتّاب الآخرين والحذو حذوهم . لقد كانت العلوم الطبيعية بمثابــة الوحي والالهام للطالب زولا منــذ بضعــة اعوام . رغب الاديب بوضع تحليل يجعل من العمل الادبي عملا علميا يوفق بين النزعتين ويسمح له باظهار الموهبتين الكامنتين في داخله .

كانت « المقدمة لدراسة الطب الاختباري » لكلود برنار بمثابة الالهام الذي طالما ترقبه .

لقد طالع سابقا نظريات داروين التي تتعلق بالتطور والارتقاء ، وبحوث الدكتور « لوكاس » التي تتناول الوراثة الطبيعية ، وفلسفة الفن « لتين » ؛ غير ان كتاب كلود برنار كان بمثابة تحديد مجرى تأليفه القاطع ، اصبح هدف زولا من الآن وصاعدا ايلاج الدقة والصرامة العلمية في الرواية التي ترقى بـه الى صفوف العلماء . لقد امسى الادب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يتميز بالرواية الاختبارية واضحى اميل زولا رائدها .

« يجب ان نضع حدا للفوضى . هذا ما كان يفكر به زولا بسذاجة . ألف الادباء حسب هواهم منقادين وراء ما يسمونه الوحي والالهام غير عابئين بقيمة العمل الذي يقومون به . يجب ان تزول هذه البلبلة . لن يكون الاديب مدعاة للهو بعد الآن . لقد نجا بعضهم من هذا الانحراف دون عمد. امثال بلزاك ، ديرانتي ، فلوبير ، والاخوين غونكور . غير انهم يعتبرون افرادا شذوا عن القاعدة السائدة ، وحالات نادرة . وطالما افتقرنا الى الوسيلة ، نخشى الاسوأ ؛ ان التباعد والاختلاف يهدد الادب . يجب ان تنتهي هذه الحقبة من الغدر والمكر ؛ سيسعى العالِم في مختبره ، والاديب في مكتبه ويواظبان على بلوغ الهدف نفسه وهو : الوقوف على الواقع الحقيقي . ان ما قام به كلود برنار بدراسة على الجسد ، قام به زولا على العواطف والميول والوسط الاجتماعي . سوف يظهر ان الانسان ليس كائنا مستقلا ولغزا فرديا ، وحصيلة صدف بل حصيلة مجموعة ظواهر تكفي دراستها والتعمق بها

لفهمه ورسمه في اطاره الحقيقي . وهكـذا رأت الروايـة الاختبارية النور وسيطرت في ذلك الزمن .

كان زولا في الثلاثين من عمره عندما عزم علـى تأليف « القصة الطبيعية والاجتماعية لعائلة تعيش اثنـاء الدولة الثانية » . نحن الآن في عام ١٨٧٠ . لقد غزت الموجة العلمية العالم كله تقريبا . ما من معضلة تستعصي على العلم . ستمر الانسانية بنهضة ليس لهـا مثيل . ان التقدم في اضطراد متزايد . اننا نرى عالم المستقبل ينبعث من خلال المجهر . فالطب الاختباري ونظرية البيئة والتطور . والوراثة الهيولية التاريخية كلها شكلت شبكة ضيقة زجت بالانسان في داخلها وكأنه لن يستطيع الافلات منها ابدا .

تضاعف ثبات زولا الطبيعي في تلك الحقبة العجيبة . كان شديد الاعتقاد بمكانته وقدرته ، ومصرا على انه فتـى العصر المرتقب . وكان العلم يشاطر ثقته وايمانه بزمنه وهو الذي بوسعه حـل كـل المعضلات . وبرأيـه انـه يكفـي الاديب الاختباري ان يكشف عن آفات المجتمع لكي يتسنى لرجال السياسة ان يحددوا العلاج المناسب ويطبقوه .

شعر كلـود برنـار في قرارة نفســه بالاستفادة التـي سيجنيها الآخرون من نظرياته ، لذلك ذكر ان هذا التعميم والشمول مزيف . لقد اثبت بوضوح، الخلاف والتباين الذي يباعد ويقابل بين الاعمال العلمية والاعمال الخيالية، بين العالم المرئي الموضوعي وعالم الادب الذي ينهل من الخيال والذات : غير ان هذه الآراء لم تكن لتعرقل مسيرة زولا .

ألم تلاحظ حماسا مماثلا عند الادباء عندما اكتشفوا معالجة علم النفس بطريقة ارجاع الشعور الى الوعي منذ خمسة وعشرين عاما ؟ غير ان زولا لم يتوقف عند هذا الحد اذ انه تاق الى بلوغ غاية النظرية . تكمن المعجزة في ان افكارا تبدو بدائية وتثير السخرية من عدة نـواح ، استطاعت ان تفسح المجال امام زولا الى ان يضع روائع ادبية . ومرة اخرى أثمر السراب اكثر من الواقع .

ادرك زولا ان هذا النوع من الروايات يلائمه وسيساهم في تفوقه وشهرته . ظل يقصد المكتبات لمدة سنة كاملة . وانهمك في البحث فيءنسب عائلة روغون ـ مكارت التسلسلي حيث سيمسي كل فند منها قصة قائمة بذاتها . وشعر هكذا انه يمسك بزمام عمله .

غير ان هذا الحلم يتطلب الجد وصفاء الذهن لتحقيقه . التجأ زولا الى « شاربنتيه » بعد أن اشهر « لاكروا » افلاسه، وعرض عليه مشروعه . طلب الناشر يومين للتفكير ثـم تبنى المشروع . واثمرت مرة اخرى ثقـة الاديب الشاب بذاته ؛ فالمصاعب تتذلل تلقائيا حياله؛ يتطلب تعهد كهذا من شاربنتيه ان يدفع الى كاتبه الحديث خمس مئة فرنك شهريا ، طوال سنوات عدة . غير ان زولا لم يتوصل بعد الى جمع جمهور كبير من القراء حوله ولا شيء يضمن ذلك . لكـن شاربنتيه كان يتمتع بحدس كبير، وكان شغوفا بالحياة المحفوفة بالمغامرات والمخاطر .

انصب اهتمام زولا على العمل بجد بعد ان استقرت حالته المادية ؛ لا شيء يشغل باله ويعكر صفو خاطره . وفكر ان افضل طريقة للعمل هي وضع برنامج خاص يتقيد به : سوف ينهض من النوم في الثامنة ، يقوم بنزهة قصيرة اذا ما سمح له الطقس بذلك ، ومن تم ينصرف الى الكتابة من التاسعة حتى الواحدة ظهرا مؤلفا العدد ذاته من الصفحات .

يعود عليه هذا النوع من العمل بالنقص الكبير ؛ انه يحمله الى التمنع عن الفكرة الناقدة ، والاعتقاد ان الانتاج اليومي هو الافضل دوما . انها فكرة غريبة تناقض فكرة الرسام الصيني الذي كتب في زاوية لوحته في القرن الخامس عشر : « لقد وضعت عشر سنوات في رسم هذا المشهد ، لكنني لم اكرس له الا لحظاتي السعيدة » .

لا يرهب العمل الروتيني زولا ؛ فالحسن والسيىء يتقاربان ، وعمل الصباح يتراكم على عمل المساء ويستعين الرديء بالافضل وكأنه يعتبر ان الصفحات مسافات يجب اجتيازها بأية وسيلة .

ثم اندلعت الحرب . واخلّت بنظام عمله . ففقد الادب مكانته ومهمته . التجأ زولا الى بوردو حيث كان على وشك ان يتخذ منصب وال . لقد عينته حكومة الدفاع الوطني مديرا في كاستلسرازان ، غير ان « غامبتا » لم يوافق على هذا التنصيب . وارسل زولا في ٢٩ ايلول من غام ١٨٧٠ الى صديقه فالابريغ قائلا :

« لقد وعدوني بمنصب حاكم في الحركة القادمة . سأترقب ذلك الحين علني استطيع ان اصنع شيئا » .

غير انه بالواقع انصرف كليا عن هذه الفكرة وعاد ادراجه الى باريس . لم يحظ بالسكينة العلمية المطلقة المنشودة . لقد فاقت ساعات القلق والاضطراب وتغلبت على لحظات الهناء والصفاء . لم يخلد ذهنه الى الراحة الا عند الانتهاء من خط السطر الاخير . عندها استسلم للراحة وتنفس الصعداء وبعث ببرقية ظفر لاصدقائه وناشره . غير انها هدنة وهمية فحسب، اذ انه يجب ان يستعد للرواية المقبلة بكل متطلباتها الجديدة . لم يتسع له الوقت بين تأليف رواية واخرى الا لجمع الوثائق، والراحة بالجهد ، ثم ينكب على عمله من جديد أكان في باريس او في « ميدان » أو على شاطىء البحر . ولكي يذكر عزمه دوما ، دوّن اميل زولا على موقدته بحروف من ذهب هذه العبارات : « لقد قطعت على نفسي وعداً ووفيت به كما لم يفعل احد من قبلي » .

في خطاب ألقاه على الطلبة قبل ان توافيه المنية بقليل، ذكر ان العمل كان سلوته الوحيدة وحافزه على العيش ، ومنهل سعادته . لا يعيق تقدمه شيء . كان يذلل العقبات الواحدة تلو الاخرى . ليس له عبقرية هوغو ولا يتمتع باسلوب صاف كاسلوبه . كل صفحة من كتاب « البؤساء » مفعمة بالشاعرية المميزة التي تضفي على ادنى تفصيل حلة ثمينة نيرة براقة . يفتقر اسلوب أميل زولا الى تلك الميزة الفريدة . فهو ينهل من طبيعة بسيطة ، جافة ، فظة ، وتفزر

الاغلاط اللغوية لديه ؛ غير انه ينجو من هذا المأزق بطريقته الخاصة ، فرحب رؤياه وعظمتها تغفر له شوائبه وسقطاته . ان فضيلته المميزة التي يتحلى بها هي القدرة والنفوذ .

اكتسح هوغو وبلزاك هذان العملاقان ، الادب الفرنسي في القرن التاسع عشر قبله . اظهرت « الكوميديا الانسانية » البيئة الاجتماعية التي لم تتبدل كثيرا خلال ثلاثين عاما . « فرستيناك » و « ڤوترين » و « الاب غوريو » مـا زالـوا يشغلون الصالات والحوانيت . لقد احصى بلزاك كـل شيء وسبر اغوارا كثيرة ؛ من الظاهر انه لـم يترك لخلفائه سوى امكانية الاعادة البسيطة والتكرير . غير انه يكفـي لزولا ان ينظر الى العالم بعين مختلفة ليبتكر قصة جديدة . غير ان نظرته شبيهة بنظرة بلزاك . فمؤلف قصة تريز راكين يتصف بميزة المحقق ، هو ايضا يتوق الى تأليف لائحة وقائمة تتناول المجتمع بأسره وتعمه . غير ان هذه الرغبة تتحول لديه الـى حاجة ماسة اذ انه بعيد عن التعمق والغوص فـي المعـاني . ولن يستطيع من جهة اخـرى ان يـوازي مبتدع الكوميديا الانسانية في الغوص في العواطف والوقوف على ماهيتها .

صدر كتاب البؤساء قبل عشر سنوات من صدور المجلد الاول من روغون ــ مكارت . ينتصب هذا الكتاب كبنيان شامخ عظيم بمتراسه المزدوج ، وجموعـه الثائرة ، وسلوك « فالجان » في شبكة المجاري ، كل ذلك يبلغ العظمة الملحمية ، بوجوهه التي لا تحصى لشوارع باريس ، وشخصياته المنحوتة

بدقة متناهية وقدرة فائقة والتي تكتسب قيمة رمزية بتحول العبقرية .

كان على زولا ان يشق طريقه بين هذين الاديبين الحاضرين في ذهنه دوما . وقد اعلن صراحة انه عازم على تطوير الادب والارتقاء الى مستوى اسلافه المجيدين الشرفاء. انه يترقب الخلاص في آخر المطاف . فكتاب روغون ـ مكارت ينتصب شامخا ويشع من بعيد . لن تثمر جهود زولا في ايام الوحي والالهام ، بل يجب ان تبرز رويدا رويدا . شرع اميل زولا في تأليف هذا الكتاب وهو في الثلاثين من عمره ، وهذا ما يجعلنا ندرك الاهمية الكبرى التي يعلقها على الوقت .

صدر المجلدان الاولان عام ١٨٧١ : ثروة روغون وحصة الكلب من الصيد . انهالت رسائل التشهير والشكاوى على نائب الجمهورية عند صدور الكتاب الثاني . وكان ينشر حينها في حلقات مسلسلة في صحيفة « الناقوس » . فاقترح زولا على رئيس التحرير أن يوقف النشر . غير انه يبرر نفسه بهذه العبارات :

« لا يُعتبر هذا الكتاب عملا منفردا ، انه يرتبط ارتباطا وثيقا بالمجموعة الكاملة ، وليس سوى نغمة موسيقية من السمفونية الشاملة التي انشدها . ارغب ان أصور « التاريخ الطبيعي والاجتماعي لعائلة تعيش تحت الحكم الثاني » . يتناول الفصل الاول الذي صدر لتوه الانقلاب العسكري ، والاعتداء الفاشم الذي تعرضت له فرنسا . وتصور الفصول

الاخرى لوحات من عادات العالم تتناول سياسة الحكم والشؤون المالية والمحاكم والثكنات والكنائس والمنشآت الاصلاحية . اريد ان اؤكد ان الجزء الاول تشر بواسطة دار « القرن » تحت اشراف الدولة . ولم يساورني الشك قط اني سأعاني من المتاعب مع نائب الحكومة نفسه . لقد استقصيت المعلومات لمدة ثلاث سنوات وما كنت اتعرض له دوما هو الاحداث العارضة البذيئة والمغامرات المخزية ، والاموال المختلسة والنساء المعروضة للبيع والشراء . لقد عانيت من هذه الحالة الشاذة الرهيبة وزعمت ان انقلها . فكان كتاب « حصة الكلب من الصيد » أو « لاكوريه » .

أكان يجب ان ألزم الصمت حيال هذا الصخب وان اتغاضى عن هذا الفجور والفسق الذي يعم البلد ؟ والقصة التي تعالج مثل هذا الموضوع لا بد لها ان تكون دنيئة .

غير ان رئيس التحرير المذكور لويس اولباخ كان يشاطر القراء آراءهم ؛ لقد صرح ان زولا بذيء وبعيد عن الحشمة . وكم من مرة اتهم زولا بقلة الحشمة والبذاءة ! واذا تصرف حينها بسخط وغيظ فهو لم يكترث لها في آخر الامر . كتب في ٩ ايلول من عام ١٨٧٢ .

« آه يا عزيزي أولباخ كم قاومت نفسي وكبحت غضبي وغيظي لكي لا اوجه اليك ردا على رسالتك الموجهة الى « غيرآن » ! « بذيء » ! كم تكررت هذه الكلمة ! لقد سمعتها منك ومن السيد بريدوم . ألم تجد عبارة اخرى تدينني بها ؟

آه ! هذه العبارة ! لو تدرك كم تبدو لي سخيفة ؟ اغفر لي ، لكني اتحدث اليك كند وليس كمحرر . لحسن الحظ لم تعد تثيرني هذه الكلمـة بعدما سمعتها مـن أفـواه النواب الحكوميين . كلا ، لم تفظني رغم ان « بذيء » كلمة جسيمة . سأحرق رسالتك لكي تجهل الاجيال القادمة هـذا التنافر والنزاع » .

غير ان هذا الاتهام لم يفارق ذهنه . فلقد دافع عن نفسه بعد مرور عدة سنوات في تجربته « السيرة والاخلاق فـي الادب » قائلا :

« ان مسألة الموهبة تجزم في الادب ، بالنسبة لي . لا اعلم ماذا يقصدون بكاتب فاضل وبكاتب بذيء ؛ غير اني اعلم جيدا ما هو الاديب الموهوب والاديب العديم القريحة . ويحلل ويجيز كل شيء للاديب الموهوب . تكمن القصة فـي هـذه النقطة . لقد ابحنا كل شيء « لرابليه » في فرنسا كما سوغ كل شيء لشكسبير في انكلترا . توحي الصفحة الجميلة بأدبها الخاص الذي يكمن في براعتها وينهل مـن حيويتها الفائقة وشكلها . انه لمن السخافة ان نجعلها تخضـع لاصطلاحات دنيوية ولفضيلة مصطلحة وتجاري العصر . اني لا اعتبر الاعمال بذيئة الا اذا كانت افكارها وتنفيذها بذيئة » .

وجاء على لسانه ايضا :

« كما نوهت آنفا ، ان اعمالنا قاتمة ، جافة ، مؤلمة لا تؤثر بالقارىء ولا تنال اعجابه . انهـا تثيره ، تحرضه ولا

تفتنه . واذا توصلت بعضها الى ارقام قياسية فـي المبيع ، يجعل هذا الرقم الكبير المشترين قلقين ساخطين . وهـكذا فان الناشئين الذين ينصبون على تصوير الرذيلة والفحشاء البشرية لكي ينالوا القسط الاوفر من المبيعات ، ما يفتأون ان يقاسوا من خيبة الامل المريرة . سيدركون في باديء الامر ان الصدق من اهم الدعائم ؛ يجب ان نهوى الحقيقة ونملـك الموهبة لكي نجرؤ على تصديرها مجردة ، دون ان ننغمس في البغيض والدنيء . ثم يكتشفون ان الرياء والخبث الواقعي يؤديان في الحال الى الثروة اكثر من الشراسة المصطنعة . ان المراءاة مدللة ولها ثمنها ؛ غير ان الشراسة تثـور ضدهـا الجماعة لانها من الصدق والصراحة . اذا لـم تكـن هـذه القساوة وهـذه الجراة من طباع الكاتب ، لا يلبث ان يظهر ذلك جليا الى العيان ، ويعاني الاديب من الاحتقار والاهانة . سينتهي به الامر عاجلا ام آجلا الى تحطيم نفسه . وهكذا يلجأ الحاذقون الماهرون الى العمل في ظل الفضيلة بعيدا عن الرذيلة . وهم على صواب » .

اصدر اميل زولا ست مجلدات خلال الفترة الممتدة بين عام ١٨٧١ و ١٨٧٦ وهي : ثروة روغون ، لاكوريه ، وسط باريس ، غزوة بلاسان ، غلطة الاب موريه ، جلالته اوجين روغون . انه يبلغ الآن السادسة والثلاثين من عمره . ان قدرته على العمل مذهلة وعزيمته ثابتة ؛ حظيت مؤلفاته باهتمـام النقاد ؛ غير ان الفوز الكبير لم يتحقق بعد . لقـد ازدرى فكتور هوغو بحملات زعيم المدرسة الطبيعية واستخف بهـا

لانه ما يزال يحتفظ بمكانته المرموقة فـي ذلك العصر ؛ لـم يستطع احد ان يزعزع عظمته ورفعة شأنه .

ظل زولا وفيا لاصدقاء حداثته ، وما برحت فكرة انشاء فريق تراود ذهنه . اختار استاذه من بين معاصريه وهـو فلوبير . وربطته صداقة متينة بادمون دوغونكور والفونس دوديه . وكانت هذه الزمرة تتناول الفطور احيانا في المطعم . كان اميل زولا شرها ، قليـل الكـلام الا اذا اثـار الحديث اهتمامه ، واذا سئل عن موضوع كتابه التالي . كما ان انداده ايضا لا يأخذون نظريته في الرواية الاختبارية، وقانون الوراثة المطبق على هذه الرواية بعين الاعتبار ؛ كانوا يسخرون منه ، فسذاجته تخمد غضبهم . ان هذا الند النشيط الذي يملأ الصحف بمقالاته حتى الى اقاصي روسيا والذي لم ينسك احد بنفوذ جدله وشجاعته ، ما زالت قدرته تظهر بحذر .

كان دوديه الخبيث يجعله يردد جملة خاصة يظهر لفظه للحروف فيها بشكل مضحك ولم تكن هذه المعاكسات لتقلل من مكانة زولا الذي بدأ يذهل اصدقاءه بغزارة عمله .

كان مؤلف روغون ــ مكارت يكتسب مـن هذه الوجبات لجمع المعلومات عن البيئات التي يجهلها . لم يغادر بلده قط ؛ ظل غريبا عن المجتمع البورجوازي الارستقراطي ؛ سعـى الى التعويض عن جهله بالاصغاء الى ما يفضيه اليه فلوبير مـن اسرار الذي تقرب الى البلاط الملكي ودوغونكور ودوديه ايضا . كان يتذكر بلا شك ان بلزاك تصرف مثله سابقا .

كان هؤلاء الادباء يشعرون بروابط التضامن العميق ؛ كانوا ينتمون طوعا او كرها الى المدرسة الطبيعية رغم تعدد القابهم . اطلق الرسام كوربيه عبارة « الطبيعي » واستعملها الرأي العام للاشارة الى ادباء اختلفوا بطباعهم وميولهم مثل فلوبير وغونكور ودوديه وزولا ؛ كانوا يؤلفون معا جماعة تثير الكراهية والخوف والحسد . كل واحد منهم يدرك مدى الفوائد التي تعود عليه من هذا الالتحام . ساهمت شخصية زولا وشغفه بالصراع والجدل ايضا في تكوين هذا الحزب .

« الحانة »

ابلغ زولا الناشر شاربنتيه في ١٤ تموز من عام ١٨٧٥ عن عزمه على تأليف رواية جديدة لم يحدد عنوانها بعد . لقد شعر بأهمية هذا العمل الذي سيعود عليه بالشهرة عندما كان في سانت ـ اوبين يتأمل امام نافذة تطل على المحيط .

« يجب يا صديقي العزيز ، ان احدثك عن احوالي واخباري . اني اثابر على العمل وانا مندهش من نفسي ، ومن جلوسي امام مكتبي الذي جعلته بجوار النافذة . تترامى امواج البحر امامي . واستأنس بالقوارب المبخرة . اتأمل القلاع والاشرعة . شرعت بكتابة دراسة موسعة عن حياة الفونكور من اجل روسيا ، واتأهب لرواية جديدة تتناول حياة الشعب ، وآمل أن تكون على مستوى رفيع » .

ظهرت رواية « الحانة » خلال فصل الخريف من عام ١٨٧٦ في حلقات مسلسلة . ولم يلبث البير ميللو ان وجه الانتقادات الى زولا . وقد اثارت هذه الانتقادات زولا مما حمله على الرد عليها كما يلي :

تنعتني بكاتب ديمقراطي لا اشتراكي ، وتعجب من تصويري طبقة عاملة معينة في ظروف حقيقية وكئيبة .

اني ارفض اولا ما تصفني به . اعتبر نفسي روائيا دون اية ميزة او نعت ، اما اذا كنت تصر على تلقيبي فقل اني روائي طبيعي ولن اكتئب ابدا . ليست لآرائي السياسية اية علاقة هنا ولا فرق بين كوني كاتبا وصحفيا . يجب الاطلاع على قصصي ومطالعتها بعيدا عن الاغراض والميول الشخصية وادراك فحواها ومغزاها قبل توجيه النقد العنيف البغيض على اعمالي وذاتي . آه ! لو تعلم كم يبتهج اصدقائي من الاسطورة المذهلة ، يتشوق اليها الجمهور ويتقبلها بسرور كلما ذُكر اسمي في مجلة ما ! لو تعلم ان القصصي الشرس هو بورجوازي فاضل ورجل علم وفن ، يحيا متعقلا في زاوية مؤمنا بعقائده الخاصة ! اني لا انفي اية قصة مختلقة ، افسح المجال امام الزمن والرأي العام لكي يكتشف حقيقة امري من خلال البلاهات المتراكمة حولي .

اما بالنسبة لتصويري طبقة عاملة معينة فهو يعود الى كوني اردتها كما هي دون اضفاء أي ظل عليها . اني اقول ما اشاهد واكتب فقط واترك للمصنفين في تهذيب مهمة الاستنتاج . لقد كشفت من الحقائق واضحة جلية ولن اخفي التفاصيل الدقيقة . لا ينتمي عملي الى أي فريق او مذهب ، انه يحمل طابع الحقيقة .

ان سنة ١٨٧٧ هي التي قررت شهرة زولا حين صدور

كتابه في مجلد . لقد لاقى الكتاب نجاحا غير متوقع مما رفع زولا الى قمة المجد؛ اسابيع قليلة كانت كافية لجعل اسمه على كل شفة ولسان . تنازل هوغو عن مركزه الذي احتفظ به طيلة نصف قرن تقريبا، مفسحا المجال امام اديب في السابعة والثلاثين من عمره . فاقت شهرة كتابه شهرة « البؤساء » الذي ظهر قبل عشر سنوات .

اذهل زولا المطالعين باختياره شخصيات روايته من بين العمال . ما برحت هذه الطبقة الفقيرة تعاني من اليأس والعدم بسبب تطور الآلات وتفوقها الجبار . ونشأت هكذا المدن الصناعية مدمرة الحرفيين الذين انخرطوا في صفوف عمال المصانع والمعامل . غير ان امورا هامة استأثرت باهتمام الكتاب كمسألة المال والطموح والجرائم بدافع عاطفي .

كان زولا اول من استرعى انتباهه هذا الوضع . ورغم انه يعايش زمنه فهو يتطلع الى ابعد . كان شغوفا بهذا العالم القاتم وضوضاء الزمن العصري المدوية والهيئة الصناعية المقدسة . لقد كشف النقاب عن آفة من آفات المجتمع العامل انذاك : الكحول . ابدع بالوصف ، فأضفى جوا ساحرا على كتابه . لم يضيء الظلمة الدامسة التي انغمس فيها سوى بصيص نور وحيد وشرير هو مقطر الخمر .

كم هو عظيم وصفه لانحطاط « جرفيز » والحي الذي تقطنه ، ومناظر باريس التي يطل عليها من اعالي مونمارتر ، وشاربي الخمر الذين تعج بهم الموائد ، والخمول الذي يتغلغل

بين الصفوف وينتهي بالسيطرة على الجميع . افلح في تصوير هذا الجحيم الارضي .

ان « الحانة » هي المثال وتحفة فنية رائعة لا تضاهى للرواية القاتمة . لقد سدت منافذ الافق ووصفت الشوارع ليلا ؛ لا تشرق الشمس فيه الا نادرا ؛ ليس هناك بصيص نور وشعاع . فكل شيء قاتم حزين . تخيم القباحة على النص برمته . ينأى الاشخاص عن شعورهم بالانسانية ويلقون بأنفسهم في التيار المظلم الذي يترقب حضورهم . لقد تحامل زولا على بطلة روايته جرفيز دون رحمة او شفقة ، ولم يخلفها الا عندما فارقت الروح بعد ان صورها مرتدية ثوبها الملطخ ومنتعلة حذاءها ، ساعية دون جدوى الى بيع جسدها .

غير انه ترتسم بين هذه الاهوال صورة رائعة غريبة نادرة ؛ ان هذه القدرة على الوصف والتصوير كأنها تنبع من عالم الاوهام ومن نسيج الخيال . واننا لنقف مشدوهين حيال هذا الكتاب ، ونعجب من رجل استطاع ان يؤلف مثل هذه القصة . لقد كان ثابت الجنان لم يثنه شيء عن عزمه . وابدع بانتقاء ، الوانا عظيمة خلابة لمشاهده .

كان زولا ولعا بالرسم والتصوير وهذا ما اظهر رأيه قريبا من حكم صديق طفولته سيزان . غير انه بالواقع ، كانت شخصيتا هذين الرجلين متضاربتين متناقضتين . يرى سيزان ان الواقع ليس سوى انعكاس الحقيقة اعمق واكثر تعقيدا .

ليس بوسعنا ان نلتقط صورتها وندركها ؛ واذا سعى الرسام الى تصويرها والتعبير عنها بصدق ، فان روحها تظل نائية بعيدة المنال . انه يؤمن بحقيقة سامية فضلى فائقة الطبيعة بينما يعتبرها زولا عادية يستطيع مشاهدتها وتأملها . واذا اتفقا للتعبير عن « الحقيقة » ، يختلفان في تفسيرها . ليس من المستغرب اذن ان يشتد شق الخلاف بينهما وينتهي بالمخاصمة والقطيعة . وهذا ما حدا ايضا بفراق زولا وهيوسمن .

ينجلي ميله للرسم في كل صفحة من « الحانة » . فتبدو كأنها لوحات زيتية .

ونحن نعلم ان الادباء كانوا ينهجون نهج زولا في التعبير مدعي التهذيب والاصلاح الاخلاقي . انهم يتكلمون باسم الحقيقة كما عبر عنها زولا بهذه العبارات : « جانب الانسان الوحشي » او « الانسان الكامل » . ما زالت الرواية الاختبارية تتصدر النتاج الادبي ، وتنتسب الى المدرسة الطبيعية مع استثناءات نادرة . لم يخلف روائي سلالة وافرة كبيرة كزولا : فكل مفيد وهام في الرواية يعود الى زولا .

تفوق زولا على نده بلزاك وسار بالادب الى درجة من القساوة الفائقة. لقد حاول خلفاؤه ان يضاهوا عمله فأخفقوا: لم يستطع احد منهم ان يضيف الى هذه الظلمات الداكنة . لم يجرؤ احد قبله ان ينغمس في الاهوال التي توحيها الطبيعة البشرية . يكمن البؤس في هذا الكتاب في الدناءة لا في

الحالات التي يكابدها الافراد ؛ يحمل كل واحد من الاشخاص في اعماقه بذور التعاسة والبؤس الحيوية . يكمن الشر في ذات الانسان ، ولا تلعب الظروف دورا كبيرا هنا ، يكفي ان لا نقاوم لكي نرى انفسنا منقادين الى اسفل الهاوية . فالبيان الخطابي الذي يلقى كل صباح اثنين امام الحانة ، وصندوق الادوات الذي يزلق على البلاط ، والساعات التي تمر . والشعور باننا نعدو نحو الفساد الذي لا يعوض ، والميل الى الفشل والانحطاط ، هذا ما اتقن زولا التعبير عنه بطريقة رائعة .

كان بصيص نور واحد يضيء جانبا من اللوحة كفيلا بجعل هذه القصة عملا مسيحيا . غير انه لا مكان للعناية الالهية في هذه الرواية . لقد وجد الانسان وحيدا ، فاقد الامل ، قاطع الرجاء ، بعيدا عن اقتراف الاثم والخطيئة ، تائها يتخبط في الظلمات ؛ خاضعا لغريزته الحيوانية عابرا سبيل الحياة ، محني الراس كحيوان يخطو نحو المنية . وبما ان زولا عاجز عن التأمل النظري ، فهو يرد على اتهامه باظهار وجه الانسان القاتم البائس بالتصوير الدائم لبيئته الحقير التعيس .

لا نستطيع ان نحكم على زولا بافتقاره الى التحاليل النفسية البسكولوجية ، فهو يصور لنا حقيقة مشاعر وطباع هؤلاء التعساء .غير ان استنتاجاته التي يستخلصها من الرواية بسيطة ... يتغلب اليراع لديه على العقل والموهبة على التفكير والتامل . لقد اعاقته رغبته الساذجة بتأليف عمل

علمي من التطلع الى ابعد من ذلك ؛ ان هذا الرجل الكامل الذي يوده يفقد الثمين القيم ويحتفظ بالقليل . فهـو يكتفي بذكر الطبقـة الاجتمـاعية والمسكـن . تـزخـر روايـات زولا بالمجانين المتخبطين ولا يعالج حالتهم تلك الا بعلـم الوراثـة والاجتماع . وكأن مواهبه في التحليل البسكولوجي تضنى وتنهك كلما هجر شخصياته لكي يقيم عمله الفني .

لقد احتد العمال غيظا عند صدور كتاب « الحانة » ، بينما لاقي استحسان الاوساط البورجوازية به . لقـد أبى العمال أن يتعرفوا على هويتهم في تلك الصورة المزيفةالدنيئة؛ بينما اغتنم البورجوازيون تلك الفرصة للازدراء وتحقير هؤلاء الذين بدأوا يخشونهم .

من عادة زولا ان يذكر العيوب والآفات دون محاولة التخفيف منها غير عابىء بشعور الانسان .

ها هو المشهد حيث يبدأ كوبو بالتقصير في العمل تحت تاثير لانتيه . انه يسير نحو الهاوية بخطى سريعة .

تردد كوبو هنيهة ؛ وبكل هدوء ، وكأنه قرر بعد تفكير عميق ، وضع كيسه ارضا قائلا :

ـ لقد اصبح الوقت متأخرا ، في تلك الساعة . سأقصد بورغينيون بعد الغذاء . سأقول ان زوجتي عانت من الالم ... اصغ ، ايها الاب كولومب ، سأودع ادواتي تحت هذا المقعد واسترجعها غدا .

وافق لانتيه على هذا التدبير المتخذ . يجب ان نعمل بلا ريب ، لكن حين نوجد مع اصدقاء يجب ان نكون لطفاء معهم . واخذ شعور بالخمول يدغدغهم رويدا رويدا واخذوا ينظرون الى بعضهم البعض . امامهم خمس ساعات من البطالة اشعرتهم فجأة بالارتياح والفرح وعم ضجيجهم المكان . واحتسوا كأسا اخيرة واتجهوا نحو صالة للهو حيث يلعبون البلياردو .

وعندما حان موعد الغذاء ، خطرت فكرة ببال كوبو . فصاح :

ــ يجب ان نصطحب باك ــ صاليه معنا . انني أعلم مكان عمله . . . سيأكل معنا عند الام لويس .

صفق الجميع للفكرة . ثم انصرفوا .

كانت الشوارع صفراء اللون ، والمطر ينهمر غير انهم لم يشعروا بهذا الري الخفيف يبلل ثيابهم لشدة الحر في الصالة . قادهم كوبو الى شارع ماركاديه الى مصنع المسامير . وبما انهم وصلوا قبل نصف ساعة من انصراف العمال ، اضطر عامل الزنك الى اعطاء قرشين لصبي لكي ينادي باك ــ صاليه ويخبره ان زوجته متوعكة المزاج . ظهر الحداد في الحال وهو يتمايل هادئا .

ــ آه ! ايها الاصدقاء . لقد احسست بذلك . ماذا سناكل ؟

وبينما هم يتناولون الفطور اخذوا يتجاذبون اطـراف الحديث . واخبرهم باك ـ صاليه بأن لديـه عملا مستعجلا . ورب العمل متسامح معه ؛ لن يواجه خطر الفصل من العمل لانه شاب نشيط . ثم تناولوا العجة واحتسوا النبيذ . كانت الام لويس تجلب النبيذ من اوفيرنيه . لقد بدأ تأثير الخمرة عليهم واخذت الشتائم تنهال من كل صوب .

ـ لقد خطر ببال رئيسي ان يعلق جرسا في كوخه . ان الجرس لا ينفع الا العبيد ... فلنقرع اليوم !

ـ اني مرغم على الانصراف قال كوبو . لدي عمل اقوم به . اجل لقد عاهدت زوجتي على ذلـك ... الهوا انتـم وسأذكركم .

كان الآخرون يمزحون ويضحكون . غير انه كان عازما على الرحيل فتبعه الجميع ، عندما قال انه سيأخذ اغراضه من عند الاب كولومب .

اخرج كيسه من تحت المقعد ؛ ووضعه الى جانبه بينما كانوا يحتسون قطرة اخيرة . كان الوقت متأخرا وجاوزت الساعة منتصف الليل ، غير ان الاصدقاء لم يعبأوا بشيء . يا لسخافة العالم ، لقد عزموا ان يقصدوا غدا هذه الحانة ايضا .

ذهبت جرفيز ذات مساء للقاء زوجها . انتظرته طويلا في الخارج ، ولما طال انتظارها قررت الدخول الـى الحانة ، واحتست الخمر لاول مرة في حياتها .

ـ حسنا ! صاح كوبو ، وارجع كأس زوجته الفارغ . اقد شربته كله ! انك لا تترددين قط في مخالطتنا .

ـ هل تكررين يا سيدتي ؟ سألها باك ـ صاليه . كلا ، اقد اكتفت . غير انها ما تزال مترددة . انها ترغب في تناول شيء حاد يسكن معدتها . كانت ترمق قدرة الخمر المقدسة المستديرة وانفها الذي يمتد ويلتف وكأنها تنفث رعشة في جسدها ورغبة حائرة . وكأنها ساحرة تطلق النار من احشائها قطرة قطرة . يا له من ينبوع سم رائع ! غير ان ذلك لم يكن ليمنعها من استنشاق رائحته وتذوق هذه القذارة حتى ولو احرقت لسانها .

ـ ماذا تشربون انتم ؟ سألت الرجال وهي ترمق لـون الاكواب الذهبية .

اجابها كوبو :

ـ هذا يا عزيزتي كافور من صنع الاب كولومب ... لا تكوني ساذجة : ستتذوقينه .

وعندما قدموا لها الشراب وانقبضت شفتاها عند احتساء اول جرعة ، استطرد عامل الزنك قائلا :

ـ ابتلعيها جرعة واحدة .

وعند الجرعة الثانية لم تعد جرفيز تشعر بالجوع . لم تعد تثيرها وقاحة وفظاظة كوبو . سيذهبان سوية الى السيرك في يوم من الايام ؛ ويشاهدان الخيول تعدو . لم تكن تمطر

في هذه الاثناء وكان المجتمعون يحتسون الخمرة الصافية البراقة كالذهب السائل . آه انها تنسيك العالم ! لم تكن الحياة لتوفر السعادة . واذا شعرت هنا بالراحة فلماذا لا تمكث ؟ كانت تتلذذ بالشرب في هذا الجو الحار وثوبها لاصق على ظهرها واطرافها خامدة . كانت تلقي النكات وحدها ، ومرفقاها على الطاولة ونظراتها تائهة ، تتلهى بالنظر الى زبونين جالسين الى طاولة مجاورة ، احدهم جسيم والآخر قصير القامة . كانت تسخر من الاب كولومب ومن مدخني الفليون . لم تكن الرائحة لتزعجها ؛ بل كانت تشعر انها ذكية لذيذة ؛ كانت تطبق جفونها قليلا بينما كانت تتنفس بسرعة دون ضيق ، متلذذة بالنعاس الذي دب في جسدها رويدا رويدا . وبعد الكأس الثالثة أرخت ذقنها على يديها ولم تعد ترى الاكوبو والاصدقاء؛ ودنت بوجهها منهم وشعرت بأنفاسهم الساخنة على وجنتيها . لقد ثملوا . وكان لعاب واحد بينهم يسيل والفليون بين اسنانه وكأنه ثور راقد .

ها هي جرفيز على شفير الهاوية . تخلى عنها زوجها، وحاولت ان تبيع جسدها لتحصل على الطعام .

جلست جرفيز تفكر امام الحانة . لو كان في حوزتها قرشان لكانت دخلت وشربت قطرة . ولكانت شفت غليلها . آه ! كم شربت من هذه القطرات ! كان يبدو لها حسنا رغم ذلك . كانت تتأمل قدرة الخمر من بعيد، شاعرة ان تعاستها نبعت منها ، وتأمل ان تقضي نحبها بقطرة منها عندما تستطيع شراءها . وسرت رعشة في جسدها واحست بالظلام المخيم .

لقد قاربت الساعة ويجب ان تتعامل بلطف مع الآخرين اذا لم تشأ أن تفقد نفسها. كانت تشاهد الآخرين يلتهمون الشراب. ابطأت خطاها وحدقت حولها . وجرت جسدها المثقل . كانت الشوارع خالية والناس يعبرون الجادة مسرعين . وكانت نساء تنتظر هنا واقفات على هذا الرصيف المظلم المقفر ، حيث تتلاشى افراح الطرقات المجاورة . كن بلا حراك ، يتجملن بالصبر ، ثم يخطون بضع خطوات ويتوقفن من جديد . كانت بينهن امرأة طويلة القامة ، تفيض حركة ترتدي ثوبا ثملا من الحرير الاسود وتزين رأسها بوشاح اصفر ؛ وغيرها هرمات متبرجات ، وشابات قذرات ، تعيسات لا يلتفت اليهن احد . وكانت جرفيز تجهل ما ينبغي عمله وتحاول ان تتقلدهن . كان الذهول مسيطرا عليها لا تشعر بالخجل كأنها تتصرف في حلم مزعج . ظلت واقفة زهاء ربع ساعة . ومر الرجال دون الالتفات اليها ثم تحركت بدورها وتجرأت ودنت من رجل وتمتمت بصوت مخنوق :

ـ اسمع ايها السيد ...

رمقها الرجل بنظرة خاطفة وتابع سيره غير مبال .

جمعت جرفيز قواها وتشجعت ، وتغاضت عن نفسها في شراسة هذا القنص ، والجوع يأخذ منها مأخذه ، ساعية وراء عشائها الذي ما زال يعدو مسرعا . ومشت طويلا دون ان تعي الوقت والطريق . كانت النساء حولها صامتات موشحات بالسواد يتنقلن تحت الاشجار وكأنهن حيوانات

اسيرة في قفص . كن يظهرن بين حين وآخر ؛ محدقـات مترقبات ثـم يتفرقن فـي الظلمة مـن جديد وهـن يلوحن بفساتينهن وكان الرجال يتوقفون ، يتحادثون ثم يبتعدون ممازحين . وآخرون رصينون يتبعون امرأة على بعد عشرة اقدام . وكانت الجلبة تتعالى ، ثم تقع المشاجرات والمساومات الثائرة في الصمت الرهيب ، وكلما تقدمت جرفيز كـانت تشاهد جماعات من النساء منتصبات في الليل مـن اول الشارع لآخره . كانت كل واحدة تبعد عشرين قدما عـن الاخرى . كانت باريس كلها محمية مصانة . وهي محتقرة، تبدل مكانها ، تنتقل من رصيف كلينيانكور الى شارع المعبد الكبير .

ــ اسمع ايها السيد ...

غير ان الرجال يمضون . غادرت المسلخ حيث الـردم ملطخة بالدم العفن . القت نظرة على فندق بونكور القديم المغلق . ومرت بالقرب من مستشفى دولاريبوا زيار وتحصي آليا النوافذ المضاءة . وعبرت جسر الخطوط الحديدية حيث مزقت صفارة القطارات السماء مزمجرة . آه ! يا اله من ليل تعيس ! ثم عادت ادراجها ونظرت الى البيوت نفسها دون توقف او استراحة على مقعد . كلا ، لم يرغب بها احد . كان هذا الازدراء يملأها خجلا . ثم اتجهت ثانية نحو المستشفى وصعدت الى المسلخ . كانت هـذه نزهتها الاخيرة ، حيث المجاري الدامية والحجرات الكئيبة .

ــ اسمع ايها السيد ...

وابصرت فجأة ظلها على الارض . وعندما اقتربت من قنديل ، توضح ظلها المبهم وتحدد ، انــه ظـل ضخم مثير السخرية مستدير . كـان بطنهـا ، جيدها واوراكها تنتشر وتسترسل سوية . كانت تتمايل في مشيتها وكأنها دمية حقيقية ! ثم ، عندما تبتعد ، تمسي الدميـة عملاقة وتملأ الزقاق كله . يا الهي ! كم بدت غريبة ومخيفة ! ادركت فـي تلك اللحظة كم خارت قواها ، وكبر تشويه جسدها . فلـم تستطع عندئذ من التمنع عن ترقب نور القنديل لكي تتأمل ظلها المتمايل . آه ! يا لها من اصابة ! ستجذب اليها الرجال في الحال . وكانت تخفض صوتها ، ولا تجرؤ الا ان تتمتم وراء المارة :

ـ اسمع ، أيها السيد . . .

لا عجب اذا كان هيوسمن من بين الادباء المعاصرين لزولا قدم افضل النقد :

« آه ! اصرخوا ، وارغوا ولتحمر وجنتاكم اذا كان هذا بالامكان ، قولوا ان كتاب « الحـانة » دنـيء وسافل وان الكلمات الفجة تقلقكم ، ماذا يهم ! فالفنانون واهل الادب يقبلون على قراءة هذه القصة . . .

« . . . واخيرا ستمسي هذه الصفحات الخلابة من بين الروائع الادبية النادرة في عصرنا : وفاة لالي ورصيف جرفيز . أيعقل ان يجرؤ اناس على انكار موهبة هذا الرجل وشخصيته الفذة ، وعظمته الفريدة في عصر عجز وخمود . . . »

وهذه سطور خطها مالارميه الى زولا :

« انه لعمل فني عظيم ؛ وجدير بحقبة تمسي فيها الحقيقة اطار الجمال الشعبي ! والذين يتهكمون عليك لانك لم تكتب من اجل الشعب خاطئون نوعا ما ، بقدر الذين يأسفون على مثالية قديمة ؛ لقد اختلقت مثالية جديدة حديثة ، هذا كل شيء . ان نهاية الكتاب التعيسة ومحاولتك الرائعة في الامثولة اللغوية التي تسمو معها المعاني الفنية والتي تنفذ الى قلوبنا نحن اهل القلم تبعث السرور فينا او تثير اشجاننا ! ان هذا يهز مشاعري ؛ أهو ميل طبيعي من جهتي أو انه نجاحك ، اني لا اعلم ؟ غير ان البداية ما زالت تحظى باعجابي . ان بساطة الوصف الصادق الامين لكوبو العامل او لعمل المرأة يضفيان جوا ساحرا لا تمحوه احزان الخاتمة ؛ لقد وهبت الادب شيئا حديثا وهو تلك الصفحة الهادئة الساكنة التي تمضي وتنطوي كأيام الحياة » .

(رسالة ، الاثنين ٣ شباط عام ١٨٧٧) .

انها المرة الاولى ، على كل حال ، التي يغوص فيها كاتب مرموق في عالم العامل ستنبثق من تفوق عمله هذا روايات اخرى تصور البروليتاريا وتثير مشاكلها . تهافتت الصحف على شراء اعمال الاديب القادمة؛ وكانت العروض المالية تتراوح بين العشرين والثلاثين الف فرنك . وهذا ما اتاح له فرصة شراء منزل في « ميدان » . ابلغ فلوبير بذلك قائلا :

« لقد ابتعت لنفسي مسكنا يقع بين بواسيه وتريل ،

في مكان رائع ، على شاطىء السين ؛ لقـد دفعت تسعة آلاف فرنك ثمنه . لقد دفع علم الادب هذا المعقل البري المتواضع ، الذي يمتاز بانفراده وبعده عن الصخب والضجيج . اني وحيد لم أر وجه انسان منذ شهر .

لن يتوقف المال عن التدفق عليه منذ ذلك الحين . لقد ارتبطت شهرة زولا ارتباطا وثيقا بمسكنه ؛ كانا ينموان معا . كان زولا يشيد ابراجا . وهكذا انتصب برج « نانا » حوالي سنة ١٨٨٠ ، وبرج « جرمينال » عـام ١٨٨٥ . كـان نجاح زولا يتراءى من بعيد ، من خلال منزله، وكأن الروايات تتحول الى حجارة .

لقد جهزها وزخرفها بمجموعة من الاثاث الذي ابتاعه بثمن زهيد ، غير انه لم يكن سليم الذوق في اختياره . لقد اعجب بأثاث ادمون دوغونكور اليابانـي الطـابع ، وحـاول منافسته في هذا المجال ، ولم تكن النتيجة لامعة . لم يتسع له الوقت للاهتمام بمثـل هـذه الشؤون ؛ كانت الشجرة التسلسلية لعائلة روغون ــ مكارت في انتظاره . ما كان عليه سوى أضافة الانسال والاعقاب .

صفحة حب

ما كاد زولا ينجز كتاب « الحانة » حتى شرع بكتابة قصة مختلفة هذه المرة انها « صفحة حب » . كان التناقض بين هذين العملين يسليه . ارسل الى تيودور ديره في ايلول من عام ١٨٧٧ :

« ان ما يدعمني هو فكرة ذهول الجمهور حيال هـذه العذوبة . اني مغرم في تتويه قرائي » .

وهذا ما افضاه ايضا الى هيوسمن :

« لقد اتممت الجزء الاول من قصتي التي ستتضمن خمسة اجزاء . اريد ان يدهش قراء « الحانة » مـن كتـاب بسيط . وكم اسر عندما اخط صفحة بسيطة ساذجة . غير اني اؤكد انه بين الحين والآخر ، تسمو افكاري قليلا عن هذا الموضوع . وليست هذه سوى مناسبة فقط. اني ادعو القراء الى حفلة عائلية حيث تتلاقى القلوب الطيبة ؛ وينتهي الجزء الاول بمنظر باريس سابحة في الضباب ، ثم يتلاشى هـذا الضباب رويدا رويدا وتسطع شمس الربيع المشرقة . كم انا

مغتبط بكتابة هذه الصفحات الغنائية .

واليكم هذه الصفحات التي طالما تغنى بها زولا :

تصاعد السحاب من اقاصي باريس التي انغمست في طي هذا الضباب الكئيب . وبدت مدينة تروكاديرو هامدة تحت تساقط آخر رضاب الثلج . وكأنها بقعة شاحبة في اطار قاتم، جارية، تتمايل باستمرار . وتتزايد سرعة هذه السحب الناصعة من وراء المداخن وابراج القرميد، وكأنها حرير شفاف فضفاض تشرت خيوطه الواحد تلو الآخر. لم يتعال ادنى تنهد من هذا المطر الهادىء المسحور في الجو المتساقط بنعاس. وبدت الرضاب تتمهل في تحليقها ، عند دنوها من السطوح ، وكانت تقع الواحدة تلو الاخرى دون توقف ، باعداد هائلة وصمت عميق ؛ وخلفت هذه الكثرة الصامتة سلوان الارض والحياة وسلاحا عظيما . وانجلت السماء وصفت في كل مكان وتراءت جزر المنازل المشعة رويدا رويدا وبدت المدينة منفصلة عن شوارعها وميادينها ، حيث كانت حفر وخنادق الظل تصور هيكل الاحياء الضخم .

. . . . . .

ثم توقف تساقط الثلج ، بعد ان تباطأت آخر الرضاب المتعبة في السقوط على السطوح ؛ واضاء شعاع الشمس الذهبي السماء الفسيحة الشهباء ، من وراء الضباب المتلاشي بنور زهري . واحاطت عصبة واحدة زرقاء افق مونمارتر ، وكأنها ظلال حرير ابيض . تخلصت مدينة باريس من الضباب واتسعت حقولها المكسوة بالثلج . لم تضف الآن الرقوش

المحلقـة القشعريرة علـى المدينـة ، حيث ترتعش الامواج الشاحبة على الجدران المصدأة . وبرزت المنازل سوداء مـن خلال السحب البيضاء حيث كانت تفغو وكأنها معفنة بقرون من الرطوبة . وبدت شوارع كاملة كأنهـا اطـلال وانقاض ، والسطوح منحنية ، والنوافذ مغلقة . امتلأ ميـدان بأكوام الردوم . وكلما اتسعت العصبة الزرقاء من ناحية مونمارتر ، سال شعاع نقي وبارد كماء الينبوع ، واضعا باريس تحت مرآة شفافة حيث تنجلي فيها حتى الاماكن النائية .

كانت زرقة صافية ، شاحبة وكأنها شعاع ازرق في نصاعة الشمس . وكان النجم يشع في الافق ، دون أن يبعث بالدفء بانعكاسه على الثلج ، في وسط الهواء القارس . وفي اسفل ، نشرت السطوح الفسيحة وقراميد البيوت الاوشحة البيضاء ، ذات الحاشية السوداء وبدت حقل مارس على الضفة الاخرى للنهر وكأنها سهل فسيح حيث تذكرنا العربات التائهة والاسنة القائمة بالمراكب الروسية الجارية ، وصوت اجراسها ؛ بينما كانت اشجار الدرار على اورسبه الصغيرة البعيدة ، تصف البلورات الدقيقة ، ونهر السين يجري بمياهه الملوثة بالتراب في هذا البحر الجليدي الساكن بين ضفتيه ؛ كانت تنقل منذ الامس ، ويلاحظ بوضوح سحق الكتل التي تفور تحت القناطر . ثم تتالت الجسور شبيهة بالتخاريج البيضاء التي تزداد رقة وعذوبة حتى تصل الى جلمود المدينة الساطعة والتي تعلوها ابراج نوتردام بقممها المكسوة بالثلج . وعلى الشمال نتوءات اخرى تخترق سهل الاحياء المتساوي.

وكانت احياء القديس اوغستين ، والاوبرا وبرج القديس جاك تبدو كمرتفعات تسيطر عليها الثلوج الابدية ؛ وكانت سرادقات اللوفر على مقربة تصور قرنة سلسلة من القمم الناصعة . وكانت هناك على اليمين ايضا القمم البيضاء ، وبدا البنتيون البعيد كقصر وهمي في السماء ، بوشاح من مرمر مائل الى الزرقة . لم يسمع أي صوت . كنا نتنبأ بالطرقات من خلال الشقوق الشهباء . وتوارت بيوت على مسافات طويلة . لم تظهر سوى الواجهات القريبة المكتظة بالنوافذ . ثم اختلطت اغطية الثلج وتاهت في مستنقع امتدت ظلاله الزرقاء مع زرقة السماء . وكانت باريس ، الشاسعة المنيرة في وسط هذا الجليد ، تلمع تحت الشمس الفضية » .

ادرك زولا ان روايته الجديدة لن تحظى بالاعجاب الذي ناله كتابه « الحانة » . لقد طالبه المطالع بقصص مشوقة قوية .

بغى زولا اظهار قدرته على تصوير المشاعر الحساسة المرهفة . غير ان ذلك اورثه كتابا سيئا وهبوطا ملحوظا في الطلب على شرائه .

قابله ادمون دو غونكور في تلك الغضون وكان مكتئبا متحسرا ، كلامه مؤلم : ما زالت رواية من السلسلة بعيدة عن النجاح . كان زولا بحاجة ماسة الى الظفر الباهر الساحق السريع ؛ فبعد ان هذب اسلوبه ونقح نصوصه اعتلى ثانية عرش النشر والاعلان . تتبع سير المبيع بلهف . فعندما يزيد

رقم المبيع ، يغتبط ويسر ويبدو له العالم بهيا مشرقا ؛ واذا رقدت حركة البيع ظل قنوطا لعدة ايام ، يأمل بالثأر، ويتخيل وسائل حديثة للسيطرة على جمهوره ثانية . كان الجمهور يقبل على الفضيحة وسيلبي زولا هذا المطلب لانه ليس من الادباء الذين تغزو المرارة والحزن قلوبهم بعد الفوز وتجعلهم يخشون من تخييب امل المطالبين بالاعمال اللاحقة .

كانت قاعدته المفضلة والنصيحة التي يتوجه بها الى تلاميذه : « لنعمل بغزارة وجد » . لم يثر سخطه وغضبه كأديب ناشيء يطلعه على شكوكه بالنسبة للرواية التي يعمل على تأليفها . ان ثقة زولا بنفسه كبيرة حتى بعد الفوز . كان يشير على اصدقائه : « تقدموا بحزم » . ليس الجمهور ، والجدل والصراع سوى عناصر هذا النجاح . انه رجل اعمال . لقد بنى برجين في « ميدان » لا من العاج بل من مادة مختلفة؛ تتفتح نوافذهما على مشاهد العالم . وكان زولا يرى العالم بأسره وهو في حضنه ، ويتأمله من وراء نظاراته .

وان ساوره الشك برهة في مقدرته فانه لن يفقد ايمانه بالحقائق ؛ وهكذا ارسل الى مدام شاربنتبه قائلا :

« يجب ان نسلم بالامر الواقع ونعترف اننا لن نحظى بالنجاح الذي لاقاه كتاب « الحانة » . ان صفحة حب عمل رقيق لن يقبل عليه الجمهور . لن نعلق آمالا كثيرة عليه . لنبع عشرة الاف نسخة ونرض بهذا العدد . لكننا سنعوض عنه بقصة « نانا » . اني احلم بنانا عظيمة . سوف ترين ذلك .

نانا

اعتاد لفيف من اصدقائه ان يزوره مرارا في منزله في ميدان في الفترة الممتدة بين عام ١٨٧٧ وعام ١٨٨٠ . وكان بين الرواد الدائمين هيوسمن ، غي دوموباسان ، هنري سيار ، ليون هنيك وبول الكسي . وكانوا جميعا يدعون انتماءهم للمدرسة الطبيعية . صدر كتاب عن هذه الاجتماعات عام ١٨٨٠ : « امسيات ميدان » الذي يحتوي على قصة كل من الادباء الستة . وكانت قصة زولا تحمل اسم « الهجمة على الطاحونة » . وقصة « كرة الشمع » لموباسان عادت عليه بالشهرة .

بعد أن منيت قصة « صفحة حب » بالفشل ، تأهب زولا للثأر . سيصور هذه المرة حياة امرأة عاهرة . غير انه للاسف ، يتحلى بالطهارة والعفة ؛ وهو بعيد عن هذا الوسط . ويلتمس مرة أخرى من اصدقائه العون والمعلومات ؛ لبى نداءه غونكور ؛ دوديه ، سيار وغيرهم ايضا وكانوا خير ناصحين بالنسبة له كتب الى سيار :

« شكرا الف مرة على المعلومات التي قدمتها لـي . انها جيدة ؛ ولا سيما تصويرك للعشاء فهو مذهل . اني أصبو لمئة صفحة من المعلومات المماثلة . سأضع منها كتابا رائعا . ارجو ان ترسل لي كل حديث . اني انتظر معلوماتك بفارغ الصبر .

انجزت تصميم كتاب « نانا » ، وكم انا سعيد . امضيت ثلاثة ايام في اختيار الاسماء التي يبدو اختيار بعضها موفقا . يجب أن تعلم ان الشخصيات فاقت الستين . لـن اتمكن من الشروع في الكتابة قبل خمسة عشر يوما ، لانه لدي تفاصيل كثيرة للتنظيم .

ابلغ فلوبير في ٩ آب من عام ١٨٧٨ :

« أتممت تصميم « نانا » الذي ارهقني لانه يتناول عالما غريبا يضم مئة شخصية تقريبا . انـي مسرور مـن هـذا التصميم . اريد ان اقول كل شيء وهناك اشياء فظة . ستسر من الطريقة الابوية والبورجوازية التي سأصور بها « بنـات الهوى » . اشعر في هذه اللحظة برعشة اليراع التي تنبئني بولادة كتاب جيد . اعزم على الكتابة في العشرين من هـذا الشهر ، بعد الانتهاء من المراسلة الى روسيا » .

لم يخطىء زولا بتوقع هذا النجاح . كانت هذه الرواية من افضل ما في السلسلة غير انها لم تبلغ شهرة « الحانة » و « جرمينال » . وهذا ما كتبه فلوبير الى شاربنتيه :

ــ « يا له من كتاب ! ان زولا رجل عبقري ، فلنعلم ذلك !!! »

ثم كتب الى الاديب نفسه :

« ... اذا وجب ان ندون كل ما هــو نادر وقدير ، ستكون كل الصفحات جديرة بالتأويل ! ان الطباع رائعــة بحقيقتها . ان عبارات « الطبيعة » غزيرة ، وافرة ؛ وموت نانا في نهاية القصة رائع ! « انه كتاب عظيم يا صديقي ! »

« ... وكلمة « لطيف » ، يا لها من اداة ! وكل طباع « اللطيف » تفتنني وتسحرني .

« ان كتاب نانا يتحول الى الوهم والاسطورة دون ان يبتعد عن الواقع » .

تبدأ القصة بصفحات الامسية حيث تدخل ابنة جرفيز وكوبو المسرح لاول مرة ؛ انها تمثل مقطع البأس والبسالة . غير ان الاديب تمنى لو كان مكان فونتان اذ انه اعجب بنانا .

ومرة اخرى ينافس زولا كبار الرسامين . سوف يكون ريبانز ، كوربه ، رونوار . فنانا بدينة ، شقراء ، وصدرها ممتلىء . يصفها زولا في جميع حالاتها ؛ فاسقة في حجرتها، خلال زيارة سعادة الملك ، بينما يعلو ذيل قميصها سروالها ، وتروح وتغدو وسط معجبيها وتتبرج وجيدها عــار ؛ ثــم يصورها على المسرح بعد عرض ظهرت فيه محيية هي تتراجع الى الوراء ، منحنية وسيقانها متباعدة . ثم ، ملتزما بالتدرج، يصفها زولا عارية، تنشر الدفء قرب الموقدة، متأملة جسدها في المرآة وممسكة بنهديها .

ان هذا الوصف جميل؛ والعالِم بأصول الروايةالطبيعية

يتدفق نشاطا وحماسا ، لا يمل من تصوير نموذجه ، ثم يرق قلبه ، ويجعل من نانا فتاة طيبة تدمر الرجال دون تفكير وكأنها تقضم تفاحة . غير انها بديئة بالطبع ، تهوى هزليا رهيبا ، ينهال عليها ضربا لانها تحب ذلك طبعا . وتتأجج الرواية العلمية في هذه الصفحات . غيز ان اميل زولا التقي الورع يتراجع .

وهكذا بدأت نانا عملها في المسرح .

في تلك اللحظة ، تفرق الجمع وظهرت فينوس . وهبطت نانا السلم برزانة ، مبتسمة للجمهور ، وكانت طويلة القامة تبلغ الثامنة عشرة من عمرها ، ترتدي بدلة بيضاء كالالهة ، وشعرها مشدود الى كتفيها . وشرعت تغني لحنها :

عندما تطوف فينوس ليلا ...

واخذ الحضور يتساءلون أهذه دعابة او مراهنة من بودناف ؟ لم يسمعوا قط بصوت كصوتها . غير أن مدير اعمالها كان يستحسنها . لم تكن تعلم كيف تقف على خشبة المسرح ، ألقت بيديها الى الامام وهي تؤرجح جسدها وسرعان ما تعالت صيحات الاستنكار وانطلق فجأة صراخ احدهم مفتنعا :

ـ عظيم !

التفتت الصالة كلها . انه الكروب ، الفار من المعهد وكانت عيناه الجميلتان جاحظتين تتأملان نانا . وحين شعر

بالجمهور يحدق به ، خجل من ذاته . وكان « داغنيه » المجاور له يتفحصه مبتسما ، والجمهور يضحك ؛ بينما أخذ السادة بالتصفيق .

ـ جيد ! احسنتِ !

وشرعت نانا نفسها تضحك عندما رأت الصالة على تلك الحالة . وتضاعف الفرح . كانت تلك الفتاة غريبة . تنتظر دون ازعاج وكأنها مقربة الى الجمهور ، تعلم انها لا تساوي شيئا ، لكن لا بأس أنها تملك شيئا آخر . وبعد ان وجهت اشارة الى قائد الفرقة الموسيقية تأذنه ببدء العزف ، شرعت بغناء المقطع الثاني :

تمر فينوس عند منتصف الليل . . .

حاولت نانا اثارة الجمهور واستمالته بصوتها . فاحتفظت بضحكتها التي كانت تشرق على فمها الاحمر الصغير ، وتلمع في عينيها الزرقاوين . ما زالت تتأرجح اذ لم يكن لديها حيلة اخرى . ارتاح لها الجمهور واعجب بها الرجال . بينما هي تشرف على نهاية المقطع ، ادركت انها لن تستطيع بلوغ النهاية . فاسرعت دون اضطراب الى بسط يديها وتحريك جسدها . فدوى التصفيق عاليا . استدارت في الحال وارتقت السلم .

ولننتقل الى اللوحة الثانية . حجرة نانا خلال الاستراحة يغزوها المعجبون .

ـ استسمحكم ، ايها السادة ، قالت نانا ذلك وهي تزيح الستارة ، غير اني فوجئت . . .

فاستدار الجميع . كانت عارية تماما توشك على ارتداء توبهـا القطني . بدت يداها عاريتين وظهـر نهداهـا تحت قميصها ، وما زالت ممسكة بالستارة متأهبة لازاحتها عند شعورها بالخوف .

ـ اجل ، لقد فوجئت ، لن اجرؤ ابدا . . . قالت متمتمة مصطنعة الحياء والارتباك .

ـ فصاح بوردناف ، هيا ، ما دمنا نعتبرك حسنة !

فأردفت قائلة وهي تصطنع السذاجة والتردد :

ـ انه لشرف عظيم لي يا جلالة الامير . . . ارجو ان تعذرني جلالتك لاني استقبلك هكذا . . .

ـ بل اعتبر نفسي متطفلا ، قال الامير ؛ لكني لم استطع مقاومة رغبتي في تقديم تهاني لك . . .

تقدمت عندئذ بكـل هدوء ومـرت وسط هؤلاء الرجال الذين افسحوا أمامها الطريق . وحيت الجميع بابتسامتها الرقيقة المعهودة . وبدت كأنها لمحت الكونت « موفا » لتوها . فمدت له يدها كصديقة ، وعاتبته على عدم حضوره العشاء . وتكرم الامير فمازح موفا الذي كان يتمتم ويرتعش لانه ابقى في يده تلك اليد الصغيرة المنتعشة من المياه المعطرة . كـم من امسيات امضاها الكونت عند الامير ، وثملا خلالها . واخفيا

الامر . لم يجد موفا لاخفاء قلقه غير هذه الجملة فقال :

ــ يا الهي ! ان هذا المكان حار . كيف تستطيعين تحمل هذا الحر يا سيدتي ؟

كان من دواعي سرور نانا ان تخلع ثيابها امام المرآة . وتتأمل نفسها عارية طويلا . كانت تعشق جسدها وبشرتها الناعمة الملمس وقوامها المرن . وغالبا ما كان مصفف الشعر يشاهدها هكذا دون ان تدير رأسها . مما يثير غضب موفا .

ارادت هذا المساء ان تتأمل نفسها مليا، فأضاءت شموع الجدران . وبينما كانت تخلع ثوبها ، توقفت اذ كانت مشغولة الخاطر تريد ان تطرح سؤالا .

ــ ألم تطالع مقال الفيفارو ؟ ... ان الصحيفة على المنضدة .

كان الشك يساورها . ماذا لو كان « فوشري » هذا قد حقرها . سوف تنتقم .

ــ انهم يدعون ان هذا الموضوع يخصني ، اردفت قائلة متظاهرة عدم المبالاة . ما قولك يا عزيزي ؟

ثم ارخت ثوبها وانتظرت عارية ريثما يفرغ موفا من مطالعة المقال . كان موفا يقرأ ببطء . كان عنوان المقال « الذبابة الذهبية » ، ويتناول قصة فتاة شابة متحدرة من اربعة او خمسة سلالات من الشمالى السكيرين وقد ورثت دما ملوثا بالتعاسة والخمر وتحول في عروقها الى اضطراب نفسي

من كونها امرأة . نشأت في ضاحية باريسية ؛ كانت تملك جسدا رائعا حاولت تأر المتسولين الذين انحدرت من اصلهم . كان الفساد الذي يختمر في الشعب ينمو معها ويتلف الطبقة الارستقراطية . امست قوة طبيعية ، مدمرة ، دون ان تدرك ذلك ، مفسدة ومضللة باريس . وذكرت المقارنة مع الذبابة في نهاية المقال ، انها ذبابة مضت من القذارة ، واخذت الموت من الجيف ، واخذت تدندن وترقص وتبعث بسمها الى الرجال عندما تحط عليهم في القصور التي تدخلها من النوافذ .

رفع موفا رأسه وعيناه محدقتان بالنار .

ــ والآن ؟ سألته نانا .

غير انه لم يجب على سؤالها . بدا وكأنه يريد قراءة المقال مرة اخرى . كان مبالغا فيه وعباراته غير متوقعة والمقابلات غريبة . غير ان هذه القراءة أيقظت فجأة كل ساكن فيه .

رفع راسه عندئذ . وكانت نانا مستغرقة في تأمل نفسها . ثنت جيدها ونظرت بامعان الى المرآة الى اشارة بنية فوق وركها الايمن ؛ كانت تتحسسه بطرف اصبعها محاولة ابرازه لانها تعتبره جميلا وغريبا في هذا المكان . ثم تأملت اجزاء اخرى من جسدها بفضول معيب . كانت تبدو مندهشة ومنذهلة كفتاة تكتشف نضجها وبلوغها . فتحت ذراعيها بهدوء وثنت خصرها وتأملت نفسها من الخلف ومن الوجه ، متوقفة عند جيدها وعند فخذيها . وخلصت الى

التأرجح يمينا ويسارا مباعدة رجليها منحنية الى الامام مرتعشة باستمرار كعاملة ترقص .

كان موفا يتأملها . دب الذعر في قلبه . وهوت الصحيفة من يده . فاحتقر نفسه في تلك اللحظة . لقد افسدت حياته في غضون ثلاثة اشهر وشعر بنفسه ملوثا بالقذارة . سيفسد كل شيء فيه ، في تلك الساعة . واحس برهة بالاحداث السيئة ، وشاهد نفسه مسمما ، وعائلته محطمة وركن من المجتمع يزول ويتلاشى . لم يستطيع ان يبعد بصره عنها وحاول ان يملأ نفسه من سآمة جسدها العاري .

لم تقم نانا بحركة . القت براسها الى الوراء واضعة كفيها حول عنقها ، مباعدة مرفقيها . كان يرى عينيها المغلقتين وفمها ، ووجهها المبتسم بحب ؛ كان شعرها الاشقر يتدلى على ظهرها . وكانت تعرض جسدها العارم بكل اجزائه . وموفا يتأملها طويلا ويفكر في نفوره القديم من المرأة . كان غدار اشقر يغطي جسدها ويجعله مخمليا . تسارعت نبضات موفا في عروقه وحاول جاهدا الفرار من الشهوة الطاغية لكن عبثا . كيف السبيل الى الهروب ونانا تستعرض جسدها على مرأى منه وتمارس جميع سبل الاغراء والاثارة ؟

ان التركيب القصصي في عمل زولا يماثل تماما تركيب بلزاك للقصة اذا استثنينا نظرية الوراثة لدى اميل زولا . ان الشخصيات تنتقل من كتاب الى آخر لدى الاديبين . انها الحبكة القصصية نفسها . تحاول العقدة ان تسيطر على سرد العمل الادبي بالاجمال .

اننا نعلم ان نانا هي ابنة جرفيز لان زولا يذكر ذلـك . وهو يذكرنا بايجاز بالفتاة التي عرفناها في « الحانة » . غير ان ذكريات الماضي هذه غريبة عن القصة التي نطالعها وهي بالكاد تؤثر فينا . لم تلتق نانا برفيقاتها في المصنع ولا بمعارفها القدامى ما عدا خالتها . ولم تمر قط قـرب الحـي الذي ترعرعت فيه . لا شيء يدل على بداهة هذه الوسيلة كمثـل هذه القطيعة بالماضي .

حقق كتاب نانا شهرة واسعة منذ صدوره . وشارك في هذا النجاح اختيار الموضوع الموفق والشخصيات الحقيقية التي كانت تتراءى وراءها الشخصيات الوهمية . كـانت الفضيحة عنصرا هاما ايضا . ازدادت الحملات ضد زولا . فالذين صفقوا لكتاب « الحانة » لانه اظهر عاهات الاوساط العاملة ، اعجبوا بنانا التي كشفت النقاب عن وهن الاوساط الراقية .

كان زولا يصغي الى هذه الضجة بسرور ويرد على اتهامه بالبذاءة مبررا انه بورجوازي طيب، منزه عن الشهوات وتقي. انه يصور الحياة كما يراها وانه باستطاعته اعطاء امثال كثيرة من الواقع الذي يحياه ؛ كان الجميع يدرك ذلك حتى الذين كانوا يسخطون عليه . فبأي حق ينهونه عن الكلام عن الموجود؟ وهو يضع حدودا بين الادباء الذين يتناولون الجنس والحب كموضوع في كتبهم بغية ارضاء اسوأ غرائز القارىء ، وبينه هو الذي يستوحي من الحقيقة وحدها ومأربه الوحيد تطهير العادات والاخلاق .

ان الواقع هو المحك الوحيد بالنسبة لزولا . فالحقيقة وحدها هي التي تبرىء الاديب في نظره . أمررت بالتجربة التي تكتب عنها ، أهي واقعية ؟ ليس هناك اية شريعة آداب تمنعك ان تتخذ منها موضوعا لكتابك مهما بدت مخزية معيبة . فكما ان الطبيب لا يرى امراضا معيبة والروائي ايضا ليس من واجبه الامتناع عن الاشارة الى العواطف ، بل من حقه ومن واجبه ايضا التطرق اليها . مما دفع بزولا الى التحامل على تصرفات المركيز دوسار بعبارات قاسية مستعملا الانتقادات نفسها تقريبا التي وجهت اليه هو . لم ير في اعمال هذا الاديب الا الوحشية الوهمية ، وصورة الواقع الاستهزائية وافعال مخبولين .

وهو ينهي مخيلة الروائي من جعل الطبيعة البشرية قاتمة بلا داع ، لكنه يظن اننا نستطيع دوما ان نستخلص حكمة من الواقع مهما كان قاسيا ، وان العلاج موجود الى جانب الشر . انه بالنهاية واعظ ومعلم في تهذيب الاخلاق .

ومما يساهم في وهبه هذه الثقة العارمة في النفس يقينه انه رجل فاضل ؛ وهذا صحيح : انه زاهد ، تقي ، صادق ، وفيّ لاصدقائه . كان متسلحا بتلك الفضائل فسبر اغوار جميع الرذائل البشرية دون ان يخوضها بنفسه . كوّن عن فنه فكرة سامية رفيعة ولا شيء يقصيه عن الحقيقة . هذا ما سنراه جليا في قضية درايفس .

لم يكد يصدر كتاب نانا حتى شرع زولا في استقصاء

المعلومات والتنقيب عن الوقائع والوثائق ثانية . نحن بصدد كتابه « بو ـ بويه » هذه المرة .

كتب الى هيوسمن في ٦ حزيران سنة ١٨٨١ :

« اشكرك على المعلومات القيمة التي زودتني بها ، لكني سأزعجك ايضا » .

يقطن مهندسي في باريس شارع شوازيل ، وهو ينتمي الى رعية سان ـ روك فهل باستطاعتي استخدامه في ترميم كنيسة سان ـ روك مثلا ؟ او يجب ان اكتفي بأسقفية اڤرو، ارجو ان تبعث لي بتفاصيل تتعلق بالاسفار التي يجب القيام بها والعلاقات مع الاكليروس . لكني افضل باريس بكثير .

وكما عمل بتأليف « صفحة حب » ، ثابر زولا في عمله على كتابة « بو ـ بويه » كعادته ، لكن دون حماس . وهذا ما ابلغه الى هنري سيار في ٢٤ آب عام ١٨٨١ :

« اعمل دوما في جو من التوازن والاعتدال الصالح . فليست روايتى سوى عمل من الدقة والوضوح . انـه بعيد عن الغنائية . لم اتمتع به لكنه يجلب الـي التسلية كعمـل ميكانيكي فيه الف دولاب يجب ان ننظم سيرها بدقة وعناية نرفضها ونناى عنها ؟ واذا خلد كتاب واحد من كتبي سيكون الاكثر اثارة للعاطفة بلا شك ، يجب ان ننوع فـي الالوان ونجرب كل شيء . اردد انـي جد خسرو من « بو ـ بويه » الذي اسميته : « تربيتي العاطفية » .

ان كتاب « بو ــ بويه » طويل جدا ومن الخطأ ان يبدو هكذا . من عيوبه ان يظهر كنوع من الاستهزاء بالمذهب الطبيعي لانه كثيرا ما يتحامل على اعمال هذه المدرسة السخيفة . تبدو هذه القصة روتينية بالرغم من نجاح بعض الصفحات خاصة تلك التي تظهر « بارت » مذهولة مع عشيقها وسط الليل .

كل الشخصيات سكان في نفس البناية وانها لمجموعة من الحوادث التي تتكرر . من الخطأ ان يضم « بو ــ بويه » اثنتي عشرة رواية وهناك ايضا الشخصيات التي ارادها الاديب عديمة الفائدة ولم يتوصل الى اثارة اهتمامنا بحياة هؤلاء البورجوازيين .

وضع زولا نفسه في زاوية من هذه الصورة وقال على لسان احدى الشخصيات ان روايته البذيئة تباع بثمن باهظ . من المحتمل ان يكون سكان بناية قطن فيها في باريس ، قد اوحوا اليه بهذه القصة مع قليل من اصلاح الكاتب الطبيعي . غير ان ذلك لم يصلح شأنهم .

نالت هذه القصة اعجاب « اندريه جيد » الذي دوّن في دفتره اليومي :

« اتممت قراءة « بو ــ بويه » للمرة الثانية باعجاب : اسلم باخطاء زولا ؛ لكن تلك الاخطاء ملازمة لميزاته وفضائله كما لدى بلزاك وغيرهما ايضا ؛ ان شراسة وفظاظة تصويره منافية للرقة واللطافة . والافراط نفسه في « بو ــ بويه » والثبات في القذارة هما اللذان يقعان موقع الرضى في نفسي .

لقد خط الكاتب الاحداث بيد عظيمة مثل لقاء اوكتاف وبرت في حجرة الخادمة وتلطيخ عشقهما التعيس بأقوال المستخدمين البذيئة التـــي انهالت عليهما ، وولادة اديل فـــي الخفـــاء ، والمشاجرات العائلية وتفسيرات مدام جوسران وبناتها (التي غالبا ما تتكرر ككل وقائع الكتاب تقريبا). ليست الشخصيات بدمى والآراء العظيمة التي يعبرون عنها تتصف باتقان وسداد نادرا ما نجدهما لدى بلزاك . اعتبر التحامل على زولا طغيانا شرسا لا يفتخر به نقاد الادب المعاصرون . ليس هناك اديب فرنسي يمثل ذاته والآخرين مثله » .

لا يبدو هذا المديح والثناء مستغربا اذ ان اندريه جيد غالبا ما ردد ان البعيد عن نفسه هو الذي يجذبه ؛ وهناك في فن زولا وموهبته المبدعة قوة من شأنها ان تقهره وتخضعه لنفوذها .

سعادة السيدات

في خلال السنتين اللتين تلتا صدور « بو ــ بويه » ظهرت ايضا روايتان في السلسلة ذاتها : « سعادة السيدات عام (١٨٨٣) و « مرة الحياة » عام (١٨٨٤) وكلتاهما تنتميان الى الانتاج المعتدل غير ان الرواية الاولى تعتبر مشوقة لانها تتناول الاهتمامات الاجتماعية التي يكشف عنها زولا وتفوق علم الآداب الاعتيادي .

وكتاب « سعادة السيدات » يظهر ان زولا قد ابدى اهتماما كبيرا بالمسائل الاقتصادية . لقد طالع كتبا لفوريه ، برودون وماركس. تثير الاشتراكية اهتمامه اذ ان هذا المذهب يغريه لانه يؤدي مثله بالرجل الى الجماعة ويخفي القيم الفردية ، ويؤمن بالتقدم المطلق وبالعلم والتقنية .

ومهما دافع زولا عن نفسه بأنه ليس كاتبا متحزبا ، فان شخصيته ونظرته الى العالم ادتا به بطريقة شبه محتومة الى التقارب من الاشتراكية . ولم يتم ذلك دون التعرض للمنازعات وجدله مع برودون خير دليل على ذلك .

ان الصراع بين التجارة الكبرى والمحلات الصغيرة هي فكرة الكتاب الرئيسية . غير ان زولا ما زال متعلقا بفنه ولذلك لم يخضع النص للفكرة كما سيحصل فيما بعد ويتغلب النبي على الروائي في اعمال السنوات الاخيرة . انه يكتفي بالحقيقة في الوقت الحاضر . ان همه الوحيد هو اظهار كل ما يرى وكما يراه دون ان يترفق بشيء او بأحد .

كان جاحدا مهتما بالعلوم فضى سنوات من حياته في الفقر والعوز . يبرز محل النوفوتيه في اطار ساحر خلاب بأضوائه ، بينما يئس التجار في المحلات الصغيرة المقفرة المظلمة .

تدور القصة حول المحل الذي يديره موريه . ولا يمل زولا من وصفه من جميع جوانبه بطريقته الخاصة الملحمية .

ها هو « سعادة السيدات » في يوم اشتدت فيه حركة المبيع . وكان موريه مغامرا من طراز الوقت العصري وهو يلعب لعبته المحفوفة بالمخاطر .

انتصب موريه وحيدا على حافة درج البهو . ومن هنا ، كان يشرف على المحل اذ كانت تحيط بـه رفوف الطبقـة السفلية وما فوقها . أحزنه فراغ الطابق العلوي : كانت امرأة عجوز تبعثر التخاريج في جميع الصناديق دون ان تشتري ؛ وكانت ثلاث اخريات يخترن فـي قسم النسيج قبات بثمانية عشر قرشا . ولاحظ ان الزبائن بدأوا يتدفقون على الاروقة المضاءة . وكأنه عرض بطيء ونزهة قرب المناضد ؛ وكـانت

النساء يزدحمن في قسم الخردة وقسم القبعات ؛ غير ان قسم القطنيات والبياضات ما زال مقفرا . وكان عمال المحل ببزاتهم الخضراء ذوات الازرار الصفراء البراقة يترقبون الناس دون القيام بأي عمل . وكان بين الحين والآخر ، يمر مفتش ويرمقهم بنظرة غطرسة . ساور القلق نفس موريه من سكون البهو . وكانت اشعة الشمس تتسرب الى المحل من خلال النوافذ الزجاجية وتضفي على رف الحرير صمتا رهيبا خاشعا . لم يثر الحياة فيه الا وقع خطوات كاتب ، همس كلمات ، وحفيف فستان . غير ان العربات كانت تتوقف عند الباب : يُسمع صوت ابواب العربات تنغلق بشدة . وعلا الضجيج في الخارج انهم فضوليون يتهافتون على الواجهات الزجاجية ، وعربات تتوقف في ساحة غايون ، يا له من حشد قادم . غير ان موريه شعر بالغضب عندما رأى عمال الصناديق عاطلين والمناضد فارغة .

ورويدا رويدا ، سكن روع موريه . اقبلت الشاريات على « سعادة السيدات » . لقد ربح المعركة مرة اخرى .

غادر موريه البهو منذ فترة طويلة واعتلى الدرج ؛ وظهر فجأة في أعلى السلم الكبير المؤدي للطابق السفلي . واستطاع من هذا المكان ان يجول بنظره في المحل كله . عادت السكينة الى نفسه وتولد الايمان مجددا عندما شاهد تدفق الزبائن شيئا فشيئا . انها البرهة المرتقبة والظفر الذي قنط منه برهة ؛ واخذ كل المفتشين اماكنهم المحددة وقرع الجرس معلنا قدوم نساء ايضا ؛ واشرقت السماء ثانية في ذلك العصر بعدما

لزم الناس بيوتهم في الصبيحة بسبب انهمار المطر . بـدات الحياة تدب في قسم الطبقة المتوسطة ؛ لقد اضطر الـى ان ينتحي لكي تمـر السيدات جماعات جماعات ويقصدن قسم الثياب ولوازم الخياطة ؛ بينما كان يسمع ارقاما خيالية تذكر خلفه . اعادت هذه الرؤية الطمأنينة الى نفسه .. كـان الاقبال شديدا علـى قسـم البياضات والصوف . وخلعت النساء قفازاتهن في قسم الحرائر لكي يتمكن من لمس الاقمشة المعروضـة وهن يتحدثن بصـوت منخفض . فبعثت هـذه الاصداء التي تصله من الخارج السرور في نفسه . وسمع رنين الذهب قرب الصناديق ، وتسارع صبية المحل الى حزم الرزم المتراكمة .

اقدمت النساء ايضا الى قسم الحرائر ، والتففن حول البضاعة المعروضة التي نسقها « هيتان » ووضـع عليها « موريه » اللمسات الاخيرة . وكانت الحرائر على مختلف انواعها والوانها تبسط علـى مرأى مـن الزبائن . ورقدت الاقمشة كالبروكار والمخمل الثقيلة في الاسفل كأنها فـي حوض . وتراءت السماء على هذه البحيرة المخملية الساحرة المتموجة . وبدت الرغبة التي لا تقهر واضحة علـى وجوه النساء . وقفن مأخوذات بهذا الترف الذي يضفيه الشلال الحريري .

لم يكن من السهل الوصول الى السلم . لقد احتشد الزبائن في القاعة . بدات معركة التداول والمفاوضة بين الباعة والنساء . حـان الوقت اخيرا واجتذبت الصناديق المـال

بوفرة . هاج الحشد في قسم الحرائر خاصة حتى امسى من العسير خلال بضع دقائق ان يخطو « هيتان » خطوة واحدة ؛ ولمحت « هزيات » « موريه » في اعلى الدرج : كان يأتي دوما الى هذا المكان ، حيث كان يشهد علـى نصره . فابتسمت ، آملة ان يهبط لتخليصها في هذه الزحمة . غير انه لم يلحظها في تلك الغمرة وكان لا يزال برفقة « فالانيوسك » ، منهمكا في اطلاعه على المحل بوجه مشرق بالفوز . طغى الازدحام الداخلي على الاصوات الخارجية ؛ لم يعد يسمع دحرجة العربـات وضرب الابواب ؛ لقـد استولى الشعور بباريس الشاسعة على المحل . وفي هذا الجو العابق ازداد الصخب الممزوج بالاصوات المختلفة . وغصت الاقسام جميعها بالنساء والزبائن واخيرا استطاع « هيتان » ان يفسح لنفسه طريقا بين هذه الجموع . وعندما صعدت هزيات السلم لم تجد اثرا لموريه الذي رافق فالانيوسك الى وسط هذا الحشد لكـي يلمس الفوز ويتحسسه .

انتهى البيع . وغادر المشترون محل «سعادة السيدات» رويدا . كان موريه يلقي نظرة شاملة على ما حققه من فوز عظيم هذا اليوم .

تفرق الجمع شيئا فشيئا . وقرعت الاجراس معلنة انتهاء وقت البيع ؛ وتباطأت بعض النسوة في الخروج وقد تملكهن جنون الانفاق ، وانساهن عنصر الوقت . ولـم يُسمع في الخارج سوى هدير العربات الاخيرة . بدأ المحل في ضوء القناديل كأنه ساحة حرب أتلفت خلالهـا الاقمشة . شرع

الباعة الذين انهك قواهم التعب ، بترتيب المكان . وشق عليهم الوصول الى الطابق السفلي الذي سد بالكراسي ؛ تراكمت صناديق الورق في قسم القفازات . تبعثرت المناديل على الارض كأنها ألواح جليدية . والخراب نفسه لحق بالطـابق الاوسط . تناثر الفراء على الارض وتراكمت لوازم الخياطة وكأنها معاطف الجنود الخارجين مـن المعركـة . ونشرت التخاريج والبياضات وتبعثرت هنا وهناك وكأن مجموعة نساء خلعن ثيابهن هنا على عجلة من امرهن ؛ كان العمال يتخلصون من الصناديق الفارغة التي حملتها العربات . غير ان قسـم الحرائر خاصة، فرغ تماما كأنه تعرض لسرقة من قبل جراد ملتهم . واخذ هيتان وفاقيه بتصفح دفاتر البيع ويحصيان الارقام . بدا الفرح على الجميع واشرقت وجوههم . وصـاح موريه :

ـ ماذا لديك يا بوردونكل ؟

عاد الى مكانه المفضل فـي اعلـى السلم . وارتسمت ابتسامة النصر على وجهه عند رؤيته الاقمشة المبعثرة . لقد ساوره شعور بالخوف صباحا ويا له من فوز الآن . تغلب المحل الكبير على المحلات التجارية الصغيرة وعلـى البارون هارتمن وملايينه وممتلكاته . كان ينظر الى امناء الصناديق وهم يجمعون ارقاما كثيرة بينما كان يصغي الى صوت الذهب الذي يتدحرج بين اصابعهم الى الصحيفة النحاسية. وتخيل ان المحل يتسـع بافراط وتبلـغ اقسامه شارع عشرة كانون الاول .

ـ والآن ؟ هل اقتنعت ان المحل صغير ؟... كان باستطاعتنا مبيع الضعف . اردف قائلا .

شعر بوردونكل بالخزي غير انه كان مسرورا من خطئه . انتهى امين الصندوق الاول من جمع ما وصله من ارقام من الصناديق الاخرى . سيطرت العملة بالذهب والفضة هذا اليوم . لقد جمع المال في ثلاثة اكياس ضخمة حملها الى اعلى السلم كعادته . وبما ان يده اليمنى مبتورة ، حملها جميعها في اليد اليسرى .

ـ كم يا « لوم » ؟ سأله موريه .

فأجاب امين الصندوق :

ـ ثمانون الفا وسبع مئة واثنان واربعون فرنكا وعشرة قروش !

وعلت ضحكة الفرح وعمت « سعادة السيدات » بكامله . انه رقم قياسي توصل اليه محل تجاري حتى اليوم .

جرمينــال

اظهر زولا بفضل كتابه جرمينال الى اية درجة كان يتفهم مبدأ المذهب الاشتراكي ؛ اذ انه اقام علاقة مباشرة مع العمال الصناعيين ودخل صميم البيئة العاملة . لــذا اعتنى عناية فائقة بهذا الكتاب ؛ لم يكتف بجمع الوثائق على عجل ، كمــا حدث له في بعض رواياته ، بل قصد منطقة منبت المعادن وامضى فيها شهورا كثيرة . اقام مع عمال المنجم ، احتسى الجعة في الحانة ونزل الــى البئر وتتبع سير العمل فيه ، وشهد على المزاد العلني لاروقة المنجم ، ورأى كيف يخشى العمال البطالة وينصاعون لاوامر الشركة .

الِف البيوت الصغيرة حيث تسمع اصوات الجيران من خلال الحواجز الرقيقة . واستفهم عن الاوبئة التي تنتج عن العمل في المنجم ، وعن الراتب وعن وسائل العمل وتعلم كيف يعمل في الرواق . راقب عمال المنجم ، بينما ملأ غبار الفحم الجو . لقد فهم لاول مرة كم يعاني الرجال في اعمالهم .

يبتدع زولا هنا ايضا ، ضاما الريبورتاج الــى الرواية ،

متخذا مـن جسد الصنعة بطلا لعمله . ان البطل الحقيقي لجرمينال ، عدا مجموعة الشخصيات البارزة هو جماعة عمال المناجم : هي التي تفعم صفحات الكتاب وتهبه القوة والعظمة. وهكذا تظهر ثانية جماعة دراما الاجيال القديمة في الرواية العصرية وتكتسب الاهمية التي لاقاها أشيل .

لعلنا لم نشر الـى أي حـد يقترب زولا مـن المخرج السينمائي بوسائله الخاصة كرؤيته البصرية وطريقة تفكيره بالصور وهذا ما يضفي على رواياته طابع الافلام . استعمل ثلاث شاشات في جرمينال .

غير ان اميل زولا لم يرفع بطله الى المثل الاعلى ؛ جعل الاحداث تتفاعل وتعبـر . يجعل مقابل العمـال المهندسين وصاحب الاسهم ، وهو يملك منجما صغيرا ، ولكن كان العدل والانصاف همه . ليست جرمينال بالعمل الدعائي وهذا مـا يضيف من قوة الاقناع ، اذ انه يكفي اظهار البيئة العمالية في تلك الحقبة في معامل الفحم لكي تهتز الضمائر . فجرمينال هي قضية درايفس للطبقة العاملة .

شعر زولا عندما عزم على تأليف هذا الكتاب انـه أقدم على موضوع ضخم ؛ غير انه لم يهب عظمة العمل ، وطريقته اثبتت ذلك ... جمع مواد ومواضيع كتابه ونفخ فيها روح الحياة الفنية .

ان موضوع جرمينال ملحمي ، ولـم يكـن زولا ادنـى مستوى منه . أستمد قوة جديدة من هذا الموضوع . لم يكن

ليجهل ان ذلك سيجلب عليه الآلام والمشقات . حينما يمر وقت الشروع والجهد سيمسي العمل منبع سرور وحبور لا يقارن . ان الوحي الذي نادرا ما آمن به ، تدفق عليه بغزارة غريبة ؛ وبلغ اسلوبه الروعة . يظهر ان عمله نصر عانـى وكابد في تحقيقه وبلوغه .

خلّف له والده مثالا أعلى : لـم يشيد قصورا ، بل بنى قنوات وابنية صلبة متينـة . استخدم فرنسـوا زولا مواد غليظة ، وعمل باقدام وثبات وهمة لم يفلح شيء باخمادها . كان عليه تذليل مصاعب جمة لتحقيق مشروع قناته ، وتغلب عليها الواحدة تلو الاخرى . وتكمن قدرة ولده في تصلب رأيه وشجاعته . وفي عمله الذي حين شرع به ، كان يدرك ان القدر سيكون جزءا داخليا للقيمة ، وعلى العمل الكلي ان يحكم عليه لا على النجاح المعين الذي هو تفصيل من البناء الشاسع بالنسبة اليه . لقد شاهد البناء كاملا بنظرة شاملة ، كما رأى والده على الخريطة القناة جارية في قرية اكس .

وملاحظات زولا التي يظهر من خلالها شقاء عمال المنجم موجزة وتتكرر دوما : انها القطرة التي ترشح من الرواق وتصيب العامل بنظام يثير السخط والغضب ، وصعوبة دفع المعدن في الممر الضيق . نجد في جرمينال مـا اثار دهشة الروائي خلال زيارته . تأثر كثيرا بالظلمات : وغالبا ما صور اميل زولا هذه الظلمات ووصف بقوة الهبوط الى بئر المعدن . غير انه ابدع في وصف هذا الجيش العامل مسرعا في القرية وقت الاعتصاب ؛ ودحرجة الاحذية تهز العالم .

ترسم متاريس « البؤساء » في خيالنا بنـاء ذهنيا ؛ والذين يدافعون عنهم هم ثرثارون احداث يجادلون في الفلسفة قبل ان يقتلوا . تنبع الكراهية في « جرمينال » من الاعماق الحيوانية ، ويدفع الظلم والطغيان هؤلاء الرجال والنساء الى الامام . ليس هذا الظلم مجردا ؛ لا مجال للتفكير هنا : ينطلق القطيع ويدمر كل شيء يصادفه في طريقه ؛ فالعنف موجود في اجساد الذين قاسوا وارادوا ان يتحرروا ، مهما كلف الامر . يصور هوغو عصيانا بينما يصور زولا فتنة .

نرى زولا مرة اخرى بعيدا عن التحزب والتعصب ؛ لم يتحول الاديب الى نبي بعد . لا يوجد طيبون واشرار فـي « جرمينال » ، بل مجموعة آلات صناعية تستغل الانسان ، وقوة مجردة تسحقه . ما العلاقة القائمة بالفعل بين الذين يغنمون من الفوائد في مدينة نائية وبين عمال المنجم هؤلاء الذين يفقدهم الجوع والعذاب والجور رشدهم ؟ لقد ازيلت كل علاقة انسانية ، ونجد انفسنا في تجريد خالص .

يروي زولا حياة عمال المنجم في جميع وجوهها منتقلا من الخاص الى العام ، من الكل الى التفصيل ، وحياة الوضعاء المثيرة : العبد الريفي ، الغرام على اكوام الفحم ، المضايقات التي تنشب من جـراء الشراء بالدين مـن محـل البقالة ، ومشاجرات المنازل السوداء وتراكم الاهل والاولاد في سكن ضيق . ان البيان في جرمينال كامل .

يشعر زولا بمعضلة من المعضلات الاكثر خطورة فـي

الثورة : انه التفاوت الناشىء ـ الفريد في عصره الذي يعيش وسط السنة لهيب العصيان ، وهــو مستعد للانطلاق الــى العالم في شكله الابدي .

« اتيان » ، الزعيم الثوري ، روح الاعتصاب ، يفكر في مستقبله ويرى نفسه في البرلمان ، متكلما باسم طبقته ؛ غير ان هذا الحلم يعزله عن الذين عزم على الدفاع عنهم . فهو لم يعد عاملا يحلم بل قائد ورئيس . تتراءى له تصورات جديدة طموحة .

انه « جوليان سوريل » الطبقة العاملة ، وهو مثله لــم يقع اختياره على الاسود بل على الاحمر . او انه لم يملك حرية الاختيار ؛ ليس ثمة لون ارجواني غيره سيؤدي به الى القوة حتما . وهذا ما يشعر به . ان الفرق بينه وبين رفاقه ما زال بسيطا غير انه حقيقي ؛ انه شق يستعد الظلم للظهور من خلاله والى فرض نظام جديد يقوم مقام النظام الذي يدّعي هدمه وصرعه .

انه الذي ادعى خصومه انه بدائي وانه يعظم الامور الى حد تنجلي فيه المشكلة الحالية الخطيرة التي نحن بصددها .

ابلغ زولا في ٢٥ كانون الثاني من عام ١٨٨٥ شاربنتيه الخبر السار :

« اخيرا ، يا صديقــي العزيز ، لقــد اتممــت كتــاب جرمينال ! وها انا ابعث اليك بالفصلين الاخيرين وارجو ان

تطمئنني انك استلمتهما . ارجو ان تستعجل المطبعة في نسخ هذه الخاتمة وارسالها الي قبل عودتي الى باريس .

ان طول الكتاب سيزعجك .

لا شيء آخر يذكر سوى اني مسرور جدا . آه ! كم انا بحاجة الى « قليل من الكسل . ! »

رغم النجاح الذي لاقاه الكتاب ، لم يتمتع زولا بالهدوء والسكينة طويلا . عندما صدر « الحانة » اتهموه بالاساءة الى سمعة العمال ؛ وعاودوا الكرة الآن فيما يخص جرمينال مازجين ، بالواقع ، اتهامات من نوع آخر . وكتب زولا بهذا الخصوص الى فرنسي مانيار في ٤ نيسان من عام ١٨٨٥ :

« طالعت صباحا مقال السيد هنري دوهامل ، وهو يلومني لاني تصورت امرأة تعمل في قاع المنجم ، بينما اعترف ان هذه الظاهرة كانت مألوفة في فرنسا حتى عام ١٨٧٤ وما زالت سارية حتى الآن في بلجيكا تقع احداث روايتي بين ١٨٦٦ و ١٨٦٩ . ألست حرا باستعمال هذه الظاهرة الواقعة لمتطلبات قصتي الدرامية ؟ وهو يدعي بالواقع ان زمن حدوث روايتي ليس صحيحا وان الاعتصاب كان اعتصابا حدث في العام الماضي في انزين . وانها لهفوة فادحة ويكفي ان يقرأ : لقد جمعت ولخصت كل الاعتصابات التي ادمت نهاية الامبراطورية حوالي عام ١٨٦٩ وخاصة تلك التي حدثت في اوبين ولاريكاماري . لا يسعنا الا اللجوء الى صحف تلك الحقبة . وبما ان السيد دوهامل يعترف ان مئتي

امرأة كن يهبطن الى المنجم في عام ١٨٦٨ ، اعتبر انه من حقي ان اجعل امرأة واحدة على الاقل تهبط في ١٨٦٦ .

ونفس الرد ايضا بخصوص الرواتب . نحن في اواخر عهد الامبراطورية ، وفي زمن الازمة الصناعية . أؤكد ان الرواتب في تلك الفترة كانت كما ذكرت . لدي الاثباتات التي يطول شرحها هنا .

وأصل الى الاتهام الكبير وهو اني عاملت عمال المنجم كلفيف من السكارى والفاسقين . ان السيد دوهامل يدافع عن نظامه وسيرة العمال . لا يسعني الا الرجوع به الى كتابي . لقد قلت ان النساء يهتممن بنظافة منازلهن الا بعض الاستثناءات : هذا رد على اللوم بالوساخة المبالغ فيها .

اما بالنسبة لاختلاط الاشخاص والخلاعة التي ترجع الى طبيعة الحياة ، قلت ان ست فتيات من اصل عشرة يقترن من عشاقهن عندما يحملن منهم ؛ وقلت عندما يأتي نزل على هذه المنازل غالبا ما يشترك الثلاثة في خوض المغامرة . هذه هي الحقيقة التي اصر عليها . فلا يخالفني احد قولي لأسباب عاطفية ؛ فليرجعوا الى الاحصاءات وليستعلموا عن الاماكن ؛ وسيتأكدون من صدق قولي .

واأسفاه ! لقد خففت من ذكر الحقائق ، سيهون الشقاء يوم يعزم الجميع على تفهمها في آلامها وخزيها . انهم يتهمونني بالكذب المضمر على اناس اثاروا شفقتي واشجاني . استطيع الرد على كل اتهام بوثيقة » .

ها هو مقطع من جرمينال الذي يعرض البيع بالمزاد العلني :

« عادوا في المساء سوية الى الحفرة لكي يطلعوا على الاعلانات . كانت القطع المعروضة للبيع بالمزاد العلني توجد في طبقة فيلونيار في الممشى الشمالي لفوره . بدت قليلة الفائدة، ولم يعرها عامل المنجم اهمية . بالفعل ، فعندما هبطا في اليوم التالي وقاده الى زيارة الطبقة المعروضة ، لفت انتباهه الى طبيعة البقعة القابلة للانهيار ، ورقّة الفحم وصلابته . غير انهم مرغمون على العمل لكسب لقمة العيش . وهكذا قصدا يوم الاحد التالي المزاد الذي جرى في الكوخ والذي تراسه مهندس الحفرة يعاونه الرئيس . كان هناك ما يقارب الخمس والست مائة فحام يقفون ازاء المنبر الصغير الذي اقيم في زاوية ؛ وكانت المزايدات بدأت بحماس ولم يسمع سوى جلبة اصوات خفيفة ، وارقام ترتفع وتنخفض اخرى .

تسرب شعور بالخوف الى نفس « ماهو » برهة خشية عدم حصوله على واحدة من الاربعين سلعة التي تعرضها الشركة. كان جميع الخصوم يخفضون أسعارهم وقد استولى عليهم الاضطراب وذعروا بمجرد التفكير بالبطالة . وتباطأ المهندس نفريل حيال هذا الحماس وترك المزايدات تهبط الى ادنى الارقام الممكنة، بينما كان دانير يختلق الاكاذيب عن جودة السلع المعروضة ، راغبا باستعجال الامور . توجب على ما هو ان يصارع ضد رفيق له لكي يحصل على الخمسين مترا التي يأمل بها ؛ وكانا ينزعان فرنكا من الرواتب بالتتالي ؛ ويعود

فوزه الى انه خفض الرواتب الى حد كبير ، مما اثار سخط رئيس العمال ديشوم الذي لكمه بيده وهو يتذمر حانقا من تلك الحالة التي لن يستطيع التملص منها .

حين خروجهما كان اتيان يجدّف . وانفجر غيظا بوجه شاڤال الآيب من حقول القمح برفقة كاترين دون عمل بينما يهتم حموه بالامور الهامة .

فصاح : ــ باسم الرب ! يا لها من حالة !... انهم يرغمون اليوم العامل على التهام العامل !

احتد شاڤال غضبا لم يكن ليخفض ، هو ! وصرح زاكاري الفضولي ان هذا يثير الاشمئزاز . غير ان اتيان طلب منهم الصمت بعنف .

ــ سينتهي كل ذلك ، سنمسي اسيادا يوما ما !
واستفاق ماهو الذي ظل صامتا طيلة المزايدة وردد :

ــ رؤساء ... آه ! يا له من قدر ! لن يكون ذلك قريبا !

وها هو يوم دفع الرواتب في ورشة الشركة . كانت زمرة عمال المنجم تترقب امام باب مكتب الخازن ؛ وعندما يهتف باسمائهم يدخلون جماعات جماعات الى المكتب لتلقي رواتب الخمسة عشر يوما .

اتى الآن دور ماهو .

ــ ماهو وكونسور الطبقة رقم ٧ . نادى الكاتب وكان

يدقق في اللوائح التي دونت ويبحث في الدفاتر حيث حرر فيها عمل كل يوم . ثم ردد :

ـ ماهو وكونسور ، الطبقة رقم ٧ ...

مائة وخمسة وثلاثون فرنكا .

فدفع امين الصندوق .

ـ عفوا يا سيدي ، تمتم ماهو مأخوذا ، أأنت واثق من انك لم تخطىء ؟

كان يتأمل هذه الحفنة الصغيرة من المال ، دون أن يلتقطها ، وقد سرت رعشة في جسده . كان يتوقع راتبا ضئيلا ، لكن ليس الى هذه الدرجة او انه اخطأ في الاحصاء . فعندما يسلم حصة زاكاري واتيان والرفيق الثالث الذي ينوب عن شاقال ، لن يبقى له سوى خمسين فرنكا لنفسه ووالده وكاترين وجانلين ..

ـ كلا ، كلا ، لم اخطىء اردف المحاسب . يجب أن تحسب احدين واربعة ايام تعطيل : هذا ما يعطيك تسعة ايام عمل .

كان ماهو يتتبع هذا الحساب ويجمع بصوت خافت : تسعة ايام اعطته ما يقارب ثلاثين فرنكا ، ثمانية عشر الى كاترين ، تسعة الى جانلين . اما الاب بونمور فلم يعمل سوى ثلاثة ايام .

ـ ولا تنس الديات ، اختتم الخازن قائلا . عشرون فرنكا دية للتنظيفات .

قام ماهو بحركة يائسة . عشرون فرنكا دية ، واربعة ايام تعطيل ! كان ينال مالا كثيرا يبلغ مئات الفرنكات عندما كان ما يزال الاب بونمور يعمل ولم يقدم زاكاري الى المنزل !

ـ اخيرا ، ستأخذ المال ؟ صاح امين الصندوق وقد نفذ صبره . انك ترى ان هناك آخرين ينتظرون ... اذا كنت لا تريده ، قل .

وحين عزم ماهو اخيرا على التقاط المال بيده الضخمة أوقفه الخازن .

ـ انتظر ، لدي اسمك هنا . توسان ماهو ، اليس كذلك ؟ . . ان الامين العام يرغب في التحدث اليك . ادخل انه وحده .

ووجد العامل نفسه في حجرة مجهزة بأثاث قديم . واصغى الى الامين العام الذي كان يوجه له الكلام من خلف اوراقه على المكتب دون ان يقف خلال خمس دقائق . غير ان ماهو لم يكن ليسمع شيئا . لقد ادرك انه يتكلم بخصوص والده الذي بلغ سن التقاعد وسيدفع له مئة وخمسين فرنكا ، بعد اربعين عاما قضاها في الخدمة . ثم بدأ له ان صوت الامين العام اصبح قاسيا . انه تأنيب ، هم يتهمونه باهتمامه بالامور السياسية ، واخيرا اشاروا عليه بالابتعاد عن هـذا

الطريق واجتناب المشاكل فهو من خيرة العمال لديهم . اراد ان يحتج فلم يفلح في ان يفوه الا بكلمات دون تتابع ولوى حويذته بين اصابعه المحمومة وانسحب وهو يتمتم :

ـ حتما يا سعادة الامين ... اؤكد لك يا سعادة الامين ...

وعندما التقى باتيان في الخارج انفجر غيظا .

ـ كم انا غبي ، كان علي ان ادافع عن نفسي !... الا يكفي اننا لا نستطيع ان نكفي ذاتنا ويتفوهون بالحماقات ! ماذا عساي ان افعل يا الهي ؟ من الحكمة ان ندعن للامر الواقع .

ثم صمت ماهو وقد اعتراه الذعر وسيطر عليه الغضب. وكانت الهواجس تمر في خاطر اتيان . وعبرا ثانية الزمرات التي كانت تحتشد في الطريق . وازداد الغيظ ، انه سخط الشعب الهادىء ، وتذمر العاصفة المزمجرة ، بعيدا عن الحركات العنيفة ، المهيمن الهائل على هذه الجموع . انها ثورة على الجوع ، على البطالة وعلى الديات . الا يكفي انهم لا يأكلون ، ماذا سيحل بهم اذا خفضوا الرواتب ايضا ؟ وتعالت اصوات الاستنكار والسخط ، وأبى الرجال اخذ رواتبهم الضئيلة من على المنضدة .

عندما وصل اتيان وماهو الى منازلهم ، لم يستطيعا ان ينبثا ببت شفة . وعندما دخل هذا الاخير ، كانت زوجته لوحدها مع الاولاد ولاحظت في الحال انه خالي اليدين .

ـ كم انت لطيف . بادرته بالقول . اين القهوة والسكر واللحمة ؟ لن تفتقر اذا ابتعت قطعة عجل .

لم يرد عليها ، حاول ان يخفي شعوره الذي ضيق عليه انفاسه . وما لبثت ان خذلته قواه واستولى عليه اليأس فانهمرت دموعه الغزيرة . وهوى على كرسي وبكى كطفل والقى بالخمسين فرنكا على الطاولة وتمتم :

ـ خذي ، هذا ما اتيتك به . . . انه عملنا جميعا .

القت زوجته نظرة على اتيان وشاهدته صامتا مهموما . فبكت هي ايضا . كيف ستعيل تسعة اشخاص بخمسين فرنكا لمدة خمسة عشر يوما ؟ لقد غادر ابنها البكر المنزل ولم يستطع العجوز ان يحرك قدميه . ستوافيه المنية عاجلا . تعلقت ألزير بعنق امها مذعورة من نحيبها واخذ الجميع بالنحيب .

انطلقت صرخة البؤس من المنازل جميعها . لقد عاد الرجال ورثت كل عائلة نفسها حيال هذا الراتب الضئيل انها لفاجعة حقا . هرعت النساء الى الخارج وكأن البيت ضاق بالمهن . كان المطر ينهمر غير انهن لم يشعرن به وناديـن بعضهن البعض عارضات حفنة المال في قبضة راحتهن .

ـ ألقين نظرة ! لقد اعطوه هذا ، يا له من عالم !

ـ انا لن استطيع ان اشتري خبزا لخمسة عشر يوما .

ـ وانا ايضا ! يجب ان ابيع ثيابي .

وخرجت زوجة ماهو مثل الاخريات . والتف زمرة حول لوڤاك التي كانت تصرخ بأعلى صوتها ؛ اذ ان زوجها السكير لم يظهر حتى الآن . وكانت فيلومين ترمق ماهو لكي لا يأخذ زاكاري المال . وبدت زوجة بيارون وحدها هادئة اذ ان بيارون كان يتدبر الامر دوما للحصول على ساعات اضافية عن ساعات دوام رفاقه . وصاحت لابريله الحانقة :

ـ لقد شاهدت خادمة عائلة هنبو هذا الصباح وهي تمر بالعربة ... أجل الخادمة في عربة يقودها حصانان قاصدة مارشيان للحصول على السمك طبعا !

وتعالت الجلبة الساخطة ثانية . لقد اثار مرور الخادمة بعربة تقلها الى المدينة المجاورة الغيظ . فحينما كان يقضي العمال من الجوع كانوا هم يحصلون على السمك . وبدأت الافكار التى زرعها اتيان في الرؤوس تنمو وتكبر . لن بطيقوا هذه الحياة وهم يأملون بنيل حصتهم من السعادة بعيدا عن هذا الافق التعيس المظلم . لقد جاوز الطغيان والظلم الحدود ، سيطالبون بحقوقهم ، كانت النساء اول من حبذ فكرة الايديالية في مجتمع لا يضم بؤساء . هبط الظلام على المدينة واشتد المطر وتضاعفت دموع النسوة .

عزموا على الاعتصاب مساء في اڤانتاج . لم يحاول راسنور المقاومة واعتبرها سوڤارين خطوة اولى . ولخص اتيان الوضع بكلمة : اذا بغت الشركة الاعتصاب حقا فليكن .

اعلن الاضراب ؛ وصمد العمال الجائعون خمسة عشر

يوما . كان اتيان منبع عزم ومقاومة انداده . وبـدأ الطموح يملأ نفسه ؛ لقد ثمل من العظمة والقوة التي وهبه اياها دوره كقائد .

امسى اتيان القائد المسلم بـه . يلقـي الخطب فـي محادثات المساء ويجزم في جميع الامور . يمضي الليل فـي المطالعة ويتلقى عددا هائلا من الرسائل ؛ اشتـرك بمجلـة « الثأر » الاشتراكية التي تصدر في بلجيكا . وكانت هـذه المجلة الاولى التي تدخل منازل العمال وكان ذلك من دواعي احترام رفاقه له . كانت خطوته ونفوذه يزدادان كل يوم وينفحان في نفسه الكبرياء . وكان يزهـو بنفسه اذ ان له مراسلة شاسعة ويتجادل بشأن مصير العمال فـي جميـع انحاء القرية ويعطي المشورة الى عمال منجم ڤورو وكأن مصير العالم يخضع له بعد ان كان عاملا ويداه قذرتان ملطختان بالفحم . كان يرتقي سلم البورجوازية المقيتة . ثمة امر يثير قلقه وهو ادراكه بمستوى ثقافته البسيط عند لقائه بالاسياد المثقفين . اذا استمر بهذه الوسيلة في تحصيل العلم ملتهما كل شيء دون طريقة صحيحة سيصعب عليه الالمام بكل ما يصبو اليه . كان يشعر احيانا بقلق حيال هذه المهمة التي كلف بها وبالخوف من انه ليس الرجل المرتقب . كان ينبغي اختيار محام او عالم جدير بالكلام والتصرف دون ان يعرض حياة رفاقه للخطر . غير ان الثورة سرعان ما تعيد الثقة المفقودة الى نفسه . لا ، لا للمحامين ! انهم سفلة يجنون الفائدة من عملهم ويستغلون ظروف الشعب ! يجب ان يحل العمال مشاكلهم فيما بينهم .

كان الحلم بالزعامة يدغدغ افكاره : مونتسو تحت قدميه ، وباريس غارقة في ضباب بعيد ، من يدري ربما يرشح نفسه للانتخابات يوما ، ويرى نفسه على منبر القاعة الفنية ، اول عامل يلقي خطابا في قاعة البرلمان .

لم يمتثل الجميع لاوامر هذا الاعتصاب ، لقد رجع بعض العمال الى مزاولة عملهم في المنجم . وخلال اجتماع المساء قرر العمال المضربون منع رفاقهم من العمل وذلك بقطع الحبال في البئر .

ومر فجاة صبي وهو يصيح :

ـ سيقطعون الحبال ! سيقطعون الحبال ! دب الذعر في افئدة الزمرة المجتمعة . وهرع الجميع الى الاختفاء في الظلام . من سيقطع الحبال ؟ يبدو ذلك شرسا .

وما لبث ان صاح عامل آخر ثم اختفى :

ـ انهم جماعة مونتسو الذين سيقطعون الحبال ! فليخرج الجميع !

عندما أعلم شافال بالامر استوقف كاترين . ان فكرة لقاء جماعة مونتسو ترهبه . لقد عادت اذن هذه الزمرة التي اعتقد انها في قبضة البوليس ! وفكر لحظة ان يعود ادراجه ويصعد عن طريق غاستون ـ ماري ؛ لكن الخطة لن تفلح . كان يشتم ، مترددا ، محاولا اخفاء ذعره مرددا ان هذا الامر سخيف . وصاح العامل ثانية .

ـ فليخرج الجميع ! الى السلالم ! الى السلالم !

انقاد شافال مـع الرفاق . واتهـم كاترين بالتباطؤ . تبغي البقاء في الحفرة وحيدة لتقضي نحبها من الجوع ، اذ ان لصوص مونتسو لن يتريثوا حتى يخرج الجميع . اثار هذا الافتراض القبيـح قلـق الجميع فسارعوا الى تسلق السلالم كالمخبولين . صاح الرجال ان السلالم تحطمت ولـن ينجو احد . وشرعوا بالفرار جماعات مذعورة الى القاعة . وهرعوا نحو البئر ناشدين النجاة ؛ وفي تلك الاثناء كان خادم الخيل الهرم الذي اعاد الخيول الى الاسطبل بحذر ينظر اليهم غير مبال ، متعودا على الليالي التي يقضيها العمـال في الحفرة .

ـ باسم الرب ! هلاّ تصعدين امامي ! قـال شافال الى كاترين . سأمسك بك على الاقل ان سقطت .

انضمت كاترين التي روعها الامر الى صفوف الفارين دون ان تعي شيئا . لقد قطعت ثلاثة كيلومترات . التقطها عندها من ذراعها بقوة ؛ فتألمت واخذت بالنحيب : لقد نسي وعده لها ، لن تنعم بالسعادة ابدا .

ـ هيا اصعدي ! صاح بها .

كانت تهابه فعلا ! سيسيء معاملتها طـوال الوقت اذا تقدمته . لذلك قاومته بينما كان العمال يدفعونها جانبـا . وكانت ترشحات البئر تسقط قطرات كبيرة والارض تهتز تحت وقع الاقدام المسرعة . لقد وقع حادث أليم منذ عامين

في المنجم حيث لاقى رجلان مصرعهما فيه عندما انقطع حبل يحمل صندوقا وكان الجميع يفكرون في هذا الحادث .

ـ ايتهـا اللعينـة ! صـاح شافال ، لاقـي حتفك ، سأتخلص منك ! فصعد ولحقت به .

كان هناك مئة وسلمان من القاع حتى المخرج يبلـغ علوهما سبعة امتار تقريبا وضعت على درج ضيق ، وكأنها مدخنة يبلغ طولها سبع مئـة متر قاتمـة دون نهاية حيث تتراكم السلالم مستقيمة فوق بعضها البعض بدرجات منظمة باستطاعة رجـل قـوي ان يقطع المسـافة بخمس وعشرين دقيقة . غير ان هذا السلم لا يستعمل الا في حالة النكبات .

تسلقت كاترين بنشاط في بادىء الامر . لقد اعتادت قدماها العاريتان على الطرقات الشاقة ولم تتألم من الدرجات المربعة الحجم التـي غطيت بقضيب حديدي منعـا للفساد . وامسكت يداها الخشنتان بطرفي السلم الضخمين بالنسبة لها . لكن ذلك شغل خاطرها واقصاها عن حزنها على هذا الارتقاء المفاجىء وهذا الصف الطويل الذي ستطل مقدمته الى الحياة بينما يظل ذيله يتخبط في ظلام المنجم . لـم يبلغوا الا ثلث المسافة بعد . لم يكن احد يتكلم ؛ لم يسمع الا وقـع الاقدام ؛ بينما كانت المصابيح تتباعد وتتسع المسافة فيما بينها كلما تقدموا وكأنها كواكب راحلة .

سمعت كاترين عاملا فتيا وراءها يحصي الدرجات . ففكرت ان تحصيها هي ايضا . لقـد صعدوا خمس عشرة

درجة ووصلوا الى رواق . تعثرت قدماها في تلك اللحظة بقدمي شاقال . فشتمها ثم توقف الصف كله ، وتجمد . ماذا يحدث ؟ ماذا هناك ؟ طرح الجميع هذا السؤال . سيطر القلق على من هم في الاسفل وترقبوا المجهول بذعر . ابلغهم احدهم انه ينبغي الهبوط ثانية لان السلالم محطمة . هذا ما كان يخشاه الجميع ، الفراغ . واتى تفسير آخر تناقلته الافواه ، لقد انزلق احد العمال من على السلم . اختلط الامر ، كانت الصيحات تمنعهم من السماع ، اسيقضون الليلة هنا ؟ ثم تقدم الجميع بخطى مثقلة بطيئة دون الاستعلام عما جرى . ستكون الدرجات المحطمة في اعلى بلا شك .

شعرت كاترين عند بلوغها الدرجة الثانية والثلاثين بتقلص عضلات قدميها وذراعيها . لم تعد تحس بالحديد والخشب تحت يديها . وسرى الالم رويدا رويدا في جسدها حتى امسى لا يطاق . تذكرت حينها حكايات الجد بونمور عندما كان يخبرها عن الفتيات اللواتي ينقلن الفحم الحجري على اكتافهن ويهوي بعضهن من اعلى . لن تفلح في بلوغ النهاية .

مكنتها وقفات اخرى من ان تتنفس الصعداء . غير ان الرعب ما زال يملأ فؤادها . كانت الانفاس الآتية من فوقها ومن تحتها تتشابك وشعر الجميع بحاجة الى التقيؤ . وبدأ الصعود لا نهاية له . كادت ان تفقد وعيها في تلك الظلمات متألمة من احتكاك جسدها بالجوانب . وسرت قشعريرة في جسدها من الرطوبة التي سببتها القطرات المتساقطة . كان

المطر ينهمر بغزارة ويهدد باطفاء المصابيح .

ردد شافال سؤاله لكاترين مرتين دون ان يحصل على جواب منها . ماذا عساها تفعل في اسفل ؟ بامكانها ان تطمئنه عن نفسها . مضت نصف ساعة على بدء الصعود ؛ ولم يبلغوا الا الدرجة التاسعة والخمسين ؛ امامهم ثلاث واربعون درجة بعد . استطاعت كاترين ان تتمتم انها بخير . خيل اليها ان عظامها تنشر بالمنشار لشدة ما كانت تعاني من ألم الحديد على قدميها . كانت تتوقع ان تشاهد يديها صلبة متوترة ، وان تهوي بجسدها الى اسفل . وكان لهث الانفاس يغشي وقع الاقدام . وتعالى شهيق من اسفل . وتلاه انين فتى اصيب في راسه .

استمرت كاترين بالصعود . لقد تخطوا المستوى . توقف المطر وغمر الضباب البئر المثقل برائحة الحديد الرث والخشب الرطب . تصلبت في العد بصوت منخفض : ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ؛ لم يبق سوى تسع عشرة. وكانت هذه الارقام التي ترددها تدعمها . لم تعد تعي ما تفعل . عندما رفعت بصرها كانت المصابيح تدور بخط لولبي . جرى الدم في عروقها وشعرت انها تفارق الحياة ، لا يربطها بهذا العالم سوى نفس واحد . والاسوأ ان الجميع انقضوا على المخرج رغبة في رؤية النور ثانية . لقد بلغ قليل من الرفاق الخارج ؛ لم يكن هناك سلالم محطمة اذن ؛ غير ان فكرة تحطيم درجات الآن لمنع خروج الباقين سلبت العقول . وانطلقت الشتائم عندما توقف الرفاق ، غير انهم لم يبالوا وواصلوا شق طريقهم بكل ما تبقى لديهم من قوة .

هوت كاترين عندئذ . لقد نادت باسم شافال . لكنه لم يسمعها كان يحاول ان يتقدم رفيقا لـه . تدحرجت ومـر الكثيرون فوق جسدها . ورأت حلما في غيبوبتها : خُيل اليها انها واحدة من اللواتي لاقين حتفهن في قاع البئر . لم يبق لها سوى خمس درجات . لم تدر كيف بلغت الخارج محملة على الاكتاف ورأت نفسها فجأة في وضح النهار وسط زمرة مضطربة تسخر منها » .

نال كتاب جرمينال شهرة فائقة . لقد كشف النقاب عن عالم فضّل الذين يقلقهم ان لا يتعرفوا عليه . وتمتعت القصة بعظمة خلدت اسم مؤلفها كأحد كبار الادباء على مر الزمن . فبعد « الحانة » ، « نانا » و « جرمينال » لم يستطع احد ان يشك بقدرة زولا .

كان يدعي فلسفة خاصة بـه . بعث الـى غوستاف جيوفرو الذي نشر دراسة عن جرمينال ، في ٢٢ تموز من عام ١٨٨٥ وكتب فيها عن تلك الفلسفة وهي الايمان المادي :

« انك على حق ، ينبغي اولا ان تبحث في اعمالي عـن فلسفة فريدة عن الوجود . كان دوري وضع الرجل في مكانه بين المخلوقات ، كانتاج من الارض خاضعا لجميع التأثيرات البيئية . ووضعت في الرجل نفسه العقل وسط الاعضاء لاني اعتقد ان الفكرة ليست سوى وظيفة للمادة . ليس علم النفس البسكولوجي الا تجردا ، وهو على كل حال ليس الا زاوية ضيقة من علم الاعضاء الفيزيولوجي » .

خاتمة روغون ــ مكارت

صدر في سنة ١٨٨٦ الكتاب الذي زاد شق الخلاف بين زولا وسيزان . اذ ان الرسام تعرف على نفسه في شخصية هذا الكتاب .

عرض زولا في حزيران من تلك السنة على ڤان سانتن كولف ما عزم على تحقيقه في كتابه « الارض » .

... ما زلت منهمكا في تصميم كتابي المقبل «الارض»، لن اشرع في الكتابة الا خلال خمسة عشر يوما . انه ليخيفني حقا لان المادة ستكون فيه مكثفة في بساطتها . أصبو في تناول جميع الفلاحين ومعالجة عاداتهم وادوارهم ؛ اريد ان اطرح مسألة الملكية الاجتماعية ؛ وان اظهر الطريق الذي سنسلكه في هذه الازمة الزراعية الخطيرة في تلك الحقبة . وكلما شرعت بدراسة حاليا اصطدم بالاشتراكية . ابغي فعل شيء من اجل الفلاح في كتاب « الارض » كما فعلت من اجل العامل في « جرمينال » . اضف اني عازم على ان اظل فنانا ، كاتبا ونظم قصيدة الارض الحية : المواسم ، اعمال الحقول ،

الناس ، الحيوانات ، القرية برمتها . هذا كل ما استطيع قوله . اطمح في عرض حياة الفلاح في قصتي : الاعمال ، الحب ، السياسة ، الدين ، الماضي ، الحاضر ، المستقبل ، وسيقع نظرك على الواقع . هل اقوى على تحريك قطعة كبيرة كهذه ؟ سأحاول على كل حال ... »

أثار الكتاب ضجة عارمة عند ظهوره في العام التالي وكان على زولا ان يواجهها . لقد اعتبروا انه ذم الفلاحين وان الفحشاء جاوزت الحدود . مما أتاح الفرصة لخصوم المذهب الطبيعي بمجابهة زولا . واتاهم عون غير مرتقب من جماعة من الادباء الشبان الذين نشروا بيانا انكروا فيه على زولا مرتبة الزعيم المعلم . وهؤلاء الكتّاب الخمسة هم : روسين ، لوسيان ديكاف ، بول بونتان ، بول مارغريت وغوستاف غيش . كانت دهشة زولا كبيرة اذ انه لم يكن يعرفهم خير معرفة .

كتب الى هنري بور في ١٩ آب عام ١٨٨٧ :

« لقد اثرت رسالتك في نفسي اثرا بليغا ، يا عزيزي بور ، واذا تألمت من هذا المقال الدنيء برهة فان الاصدقاء قد بعثوا العزاء في قلبي .

انك تشير الى امور لا اريد الاقرار بها . لحسن الحظ ، ليس هؤلاء الموقعين الخمسة من اصدقائي لم استقبل واحدا منهم في منزلي لم اجتمع بهم الا عند غونكور ودوديه . وهذا مما خفف وطأة بيانهم على نفسي » .

كنت دوما مولعا بالوحدة والنأي عن الاختلاط بالناس ، لدي بعض الاصدقاء واني متمسك بصداقتهم » .

كان زولا على حق بعدم لوم دوديه وغونكور كما اوحي اليه انهم السبب الحقيقي لهذا البيان . لم يكن لهم علاقة بهذا الامر . كتب دوديه الى زولا ليحذره من الذين يبغون اقامة خلاف بينهما .

وهذا رد زولا الى دوديه في ١٩ تشرين الثاني من عام ١٨٨٧ :

« غير اني لم اصدق قط يا عزيزي دوديه انـك علمت بشأن بيان الادباء الخمسة الغريب ! لقد صحت قائلا انك لا انت ولا غونكور قد علمتما بهذا الامر ، وانه وقع عليكما وقع الصاعقة . هذا ما أفضيته للصحفيين دون مراوغة .

اني مرتبك لانكما اعتقدتما بتوجيـه التهمة ضدكما . والغريب انكما جعلتماني متهما بعد ان كنت الضحية وعوضا عن مساعدتي ، أوشكتما ان تقطعا علاقتكما بي .

لم اكن لكما الحقد قط . لقد بعثت رسالتك السرور في نفسي لانها وضعت حدا للخلاف الذي سر به خصومنا » .

التقى زولا بجان روزيرو في عام ١٨٨٨ . كانت تبلـغ العشرين من عمرها وهو فـي الثامنة والاربعين . لـم يرزق زولا بأطفال ، وهبته جان بنتا وصبيا تعرفت عليهما مـدام زولا بعد موت زوجها . انها المغامرة العاطفية الوحيدة التي قام بها طيلة حياته .

في تلك السنة بالذات رغب زولا مرة اخرى ان يظهر قدرته على العبور بسهولة من العنف الى الرقة ، فألف « الحلم » . غير انه ما لبث بعد عامين ان عاد الى الهامه الحقيقي بتأليف « الحيوان البشري » الذي ينتمي الى السلالة الطبيعية .

شرع بجمع الوثائق واستقصاء المعلومات منذ عام ١٨٨٩؛ كتب الى الطبيب غوفرنه في ٣ حزيران « اني بحاجة الى معلومات لروايتي التى اكتبها واطلبها منك .

اعلم ان ملح البارود يستعمل كسم . انستطيع اعتبار ملح البارود الذي في بيوتنا ساما ايضا ؟

اصف فلاحا سافلا يسم زوجته بطريقة بطيئة وسهلة .

أأستطيع ان اجعله يستعمل ملح البارود الذي يملكه وبأية كمية وكيف ؟ » .

ولاول مرة يبعث برسالة الى شاربنتيه يظهر فيها جزعه من هذه السلسلة .

« لقد عملت جاهدا في هذه الرواية . سأنجزها في اول كانون الاول حتما . كم أرغب في ختم سلسلة روغون ــ مكارت عاجلا . هذا ممكن لكنه سيتطلب مني عملا شاقا .

اني على احسن حال واشعر كأني ما زلت في العشرين من عمري .

آه ! يا صديقي ، لو كنت في الثلاثين من عمري لكنت ادهشت العالم » .

ليست قصة « الحيوان البشري » سوى سلسلة جرائم . الشخصية الرئيسية فيه هي جاك لانتيه المجرم بالوراثة طبعا . انه ولع بالدم كما تولع سواه بالخمر . فبينما تمسي شخصيات الرواية الاخرى مجرمة بمقتضى المصلحة او بدافع الغيرة فان لانتيه هو مجرم بالغريزة، بالفطرة وبدافع اللذة التي يتمتع بها ساعة القتل . ووصف صراعه ضد رغبته بالقتل يبلغ مقاما رفيعا وبراعة فائقة .

لا شيء يستطيع ان يبين الفرق بين دوستويفسكي وزولا كمقارنة بين «الجريمة والعقاب» و «الحيوان البشري». ان راسكولينكوف يقتل لاسباب نظرية ميتافيزيكية، وفاجعته هي فاجعة الخطيئة ، والخلاص بأي ثمن حتى لو كان الثمن العقاب . اما في « الحيوان البشري » تسود الوحشية فقط . يحدث كل شيء في اعماق الجسد . تقود القوانين الغامضة القاتمة الكائنات ولا مجال هنا للتفكير . لا تسبب الجريمة عذابا للنفس ولا تخلق مشكلة للضمير ، بل ينتج عنها فساد وانحلال القاتل ببطء وحقد .

ابدع زولا بوصفه حالة الخور والوهن رغم كونه رجلا صارما تجاه نفسه ، مثابرا على العمل بعزم كبير . ويبلغ ذروة عبقريته عندما يصف حالة نفسية وانحلالا داخليا يصيب احدى شخصياته . عندها فقط يسبر اغوار الذات الانسانية .

يتناول كتاب « الحيوان البشري » موضوع قصة « تريز راكين » غير ان ما كان خطوطا فقط يتضح هنا ويبرز ؛ عالج الاديب هذا الموضوع ثانية في فترة نضوجه فاتسم بقدرة المعلم وعظمته .

يقتل رجل وزوجته في القصتين وتظهر عواقب الجريمة للقارىء . غير ان اللوحات المرسومة رائعة : القطارات الحديدية ، المحطات ، والشعور الحدبث بالسرعة آنذاك والديكور مستوحى في اطار ساحر خلاب . ان « الحيوان البشري » هو الجريمة العاطفية في عالم صناعي .

لقد استهزأوا بالرحلة التي قام بها زولا من باريس الى « مانت » على سطح عربة في القطار الحديدي وهو يرتدي ثياب عامل القطار . من السهل ان نلاحظ ان همه في المعرفة بنفسه ـ حتى في ادق التفاصيل ـ يضيف الحقيقة والحياة الى روايته . ها هو المقطع الذي يعلم فيه لانتيه القاتل ان عشيقته سفرين شاركت في ارتكاب جريمة هي الاخرى :

في منزل سفرين ، بعد ان سردت له هذا النص الطويل كانت هذه الصرخة بمثابة حاجتها الى الفرح في غمرة ذكرياتها البغيضة . غير ان جاك الذي أثارت قلقه واضطرابه قاطع حديثها ايضا .

ـ لا ، لا ، تريثي ... وكنت جاثية بالقرب منه ، وشعرت به يفارق الروح ؟

لقد استيقظ المجهول في داخله ، وتصاعدت موجة

متوحشة من احشائه وطفت علـى تفكيره . استولى عليه فضول الجريمة ثانية .

ــ وماذا بعد ، المدية ، اشعرت بالمدية تلج فيه ؟

ــ اجل انها طعنة صماء .

ــ آه ! طعنــة صماء . . . لا وجــود للتمزيق ، اانت متأكدة ؟

ــ كلا ، كلا ، لا شيء سوى صدمة .

ــ ثم ، بعد ذلك ، هل شعر برعشة ؟

ــ اجل ثلاث رعشات ! سرت فيه طويلا من راسه حتى اخمص قدميه ، لقد تتبعتها .

ــ أتصلب من هذه الرعشات أليس كذلك ؟

اجل الرعشة الاولى قوية ، والاثنتان الاخريان اضعف .

ــ وفارق الروح ، وبماذا أحسست عندما رأيته على تلك الحال ؟

ــ لا أدري !

ــ لا تدرين ، لماذا تكذبين ؟ اخبريني ، اخبريني بمــاذا شعرت صراحة . . . بالالم ؟

ــ كلا ، كلا ، لا بالالم !

ــ بالفرح ؟

ـ بالفرح ؟ كلا ، لا بالفرح !

ـ ماذا اذن يا حبيبتي ؟ ارجوك اخبريني بكل شيء . . . اخبريني بماذا نشعر .

ـ يا الهي ! أنستطيع التعبير عن ذلك ؟ انه لأمر هائل ، انه ليحملك بعيدا بعيدا ! لقد احسست بالحياة في تلك اللحظة كما لم أشعر بها في حياتي كلها .

وانغمسا معا في اللذة الحيوانية . لم تسمع الا اصداء انفاسهما . خيم الصمت والبرد على الحجرة وخمدت النار في الموقد . غطى الثلج باريس . سمع غطيط بائعة الصحف التي تقطن بالجوار . ثم اختفى كل شيء في هوة البيت الراقد، وشعر جاك الذي استلقت سفرين بين ذراعيه ، لقد خلدت في الحال الى النوم الذي لم تستطع مقاومته . ارهقها السفر والانتظار الطويل لدى آل ميزار وهذه الليلة المحمومة . تمنت ليلة سعيدة لجاك متمتمة كالاطفال ثم استسلمت لسبات عميق . كانت الساعة تشير حينها الى الثالثة .

شعر جاك بعد ساعة بثقل رأسها على ذراعه الايسر الذي تخدر . لم تغف له عين وكأن يدا خفية تبقي جفونه مفتوحة في الظلام . لم يستطع حاليا التمييز في اثاث الغرفة التي هبط عليها الظلام ؛ كان عليه ان يلتفت الى الناحية الاخرى ليبصر زجاج النوافذ الثابتة بلا حراك كأنها في حلم . كانت الهواجس تقلق خاطره رغم التعب الذي انهك قواه . وكلما حاول جاهدا ان يخلد الى النوم تراوده الافكار وتمر

الصور نفسها في مخيلته موقظة المشاعر ذاتها . والذي كان يحدث بانتظام دقيق بينما كانت الظلال تفشو عينيه انما هي الجريمة بكل تفاصيلها . كانت تتجدد متشابهة ، غازية مسيطرة ، فتسلبه عقله . ان المدية تلج في العنق بطعنة صماء ، ويرتعش الجسد ثلاث مرات ، ثم تفارقه الروح مع تدفق الدم الفاتر ، موجة حمراء كان يشعر بها تسيل على يديه . ولج السكين ، وارتعش الجسد عشرين مرة ، ثلاثين مرة . لقد أمسى ذلك مخيفا ، فظيعا هائلا يفجر الليل . آه ! ليته يستطيع ان يقوم بطعنة مماثلة ، ويشفي غليله وهذه الرغبة القديمة ، ويدرك هذا الشعور ويعيش هذه اللحظة التي تساوي العمر كله !

ظن جاك ان ثقل سفرين على ذراعه هو وحده الذي يسلب النوم من عينيه . وتملص منها بهدوء ، ووضعها قربه دون ان يوقظها . شعر بالراحة في بداية الامر ، وتنفس الصعداء معتقدا انه سيتغلب على الارق اخيرا . غير ان الايدي الخفية ابقت جفونه مفتوحة رغم جهده ؛ وظهرت الجريمة ثانية في الظلام بخطوط دامية وولج السكين وارتعش الجسد . وحجب السيل الدامي الظلمات ، وبرز كلم العنق عميقا كجرح سببته فأس . توقف حينها عن الصراع واستلقى على ظهره ، فريسة لتلك الرؤية . واصغى في نفسه الى عناء العقل المضاعف والى صخب هذه الآلة . كان الصوت يأتي من بعيد ، من طفولته . غير انه ظن نفسه بريء من هذه الرغبة التي دفنت منذ شهور عندما احب تلك المرأة ؛ وها هو

يشعر بها حادة كما لم يشعر بها من قبل ، لقد احياها ذكر سفرين لتلك الجريمة وقد ضمها بين ذراعيه . ابتعد عنها ، وتحاشى ان تلمسه وشعر بحرارة لا تطاق تلهب ظهره كأن النضيدة تحولت الى جمر تحت ظهره . وحاول ان يخرج يديه من تحت الغطاء ؛ غير انهما تجمدتا في الحال فأرجعهما وضمهما واسرهما هنا كأنه يخشى ان تقوما بأي عمل شنيع دون ارادته .

كان جاك يعد الساعات التي تمر . اشارت الساعة الى الرابعة ، الخامسة والسادسة . وأمل ان يطرد الفجر هذا الكابوس . فالتفت نحو النافذة يتأمل الزجاج . غير انه لم ير الا انعكاس الثلج المبهم . وسمع قطار الهافر يمر في الخامسة الا الربع وهذا ما يؤكد ان الحركة ستدب في الطرقات . وسرى شعاع ابيض شاحب من خلال الزجاج . واضاء الحجرة التي طفى الاثاث فيها فظهرت الموقدة والخزانة . لم تغمض له عين بل بالعكس رغب في الرؤية . وفجأة تراءى له السكين الذي استعمله في الامس في قطع الحلوى قبل ان يراه على المنضدة . لم يعد يشاهد سوى هذا السكين ، وخشي يديه فخبأهما تحت جسده لانه شعر انهما تهتزان ثائرتين أقوى من ارادته وعزمه . هل ستكفان عن تملكه لهما ؟ كأنهما يدان يملكهما شخص آخر وهبه اياهما سلف في زمن كان فيه الانسان يخنق الحيوانات !

ادار جاك رأسه نحو سفرين لكي لا يقع بصره على السكين . كانت تغط في سبات هادىء بعد ان اضناها العناء .

وشعرها الاسود الطويل مسترسل علـى كتفيها ؛ وتراءى جيدها الرقيق الناصع وسط شعرها الكثيف . فتأملها كما لو لم يعرفها قط من قبل . كان متيما بحبها الى درجة انه مر يوما في محطة دون ان يتوقف رغم الاشارات . اذهلته رؤية هذا الجيد ؛ واستولى عليه الشعور اللاواعي بالحاجة الملحة الى التقاط السكين وغمسه في عنقها . سمع الطعنة الصماء وتراءى له الجسد يرتعش ثلاث مرات ثم يخمده الموت ويتدفق منه الدم . فصارع تلك الفكرة التـي سيطرت علـى عقله وحواسه وفقد كل ثانية قليلا من ارادته كما الحال عندما استسلم لقوة الغريزة والميل الطبيعي . اختلط الامر عليه ، وثارت يداه وتخلصتا من أسره في حجبهما فانحلتا وافلتتا . ادرك حينها انه ليس بوسعه السيطرة على الموقف ، فجمـع قواه والقى بنفسه خارج السرير كرجل ثمل . أخذ يتمايل ويبحث عن ثيابه وقد سيطرت على تفكيره فكرة الخروج واخذ السكين معه والنزول الى الشارع وقتل امراة اخرى : كانت رغبته تعذبه ، يجب ان يقتل احدا . لم يجد سرواله ولمسه ثلاث مرات قبل ان يدرك انه يمسك به . وعانى كثيرا لينتعل حذاءه . كان يرتجف من الحمى ، انتهى من ارتداء ملابسه اخيرا وتناول السكين وخبأه تحت كم قميصه ، متأكدا انـه سيقتل اول واحدة يصادفها على الرصيف ، غير ان تنهـد سفرين في السرير سمره في مكانه ، وشحب وجهه .

لقد استيقظت سفرين .

ـ ماذا هناك يا حبيبي ، أستخرج الآن ؟

لم يجبها ، لم ينظر اليها آملا ان تعود الى النوم .

ــ الى أين انت ذاهب يا حبيبي ؟

ــ لا شيء تمتم قائلا ، لدي عمل اقوم به ... نامي ، سأعود .

ثم اغمضت عينيها وتمتمت :

ــ اريد ان انام .. تعال قبلني يا حبيبي .

لكنه لم يقم بأية حركة لانه يدرك انه اذا التفت اليها والسكين في يده ، اذا وقع نظره عليها فقط وهي عارية جميلة سيفقد كل مقاومة ، سينقض عليها ويطعنها بالسكين في عنقها رغما عنه .

ــ حبيبي ، تعال قبلني ...

وتلاشى صوتها واستسلمت للسبات ثانية ، هادئة متمتمة بحنان . فهرع منطلقا الى الخارج بلا وعي » .

في ٩ آذار من عام ١٨٩٠ اعترف زولا مجددا لجول لوماتر انه بدأ يمل من روغون ــ مكارت :

« اجل ، لقد سئمت هذه السلسلة وهذا أمر بيننا فقط . لكن ينبغي ان افرغ منها دون تغيير في نمط العمل .

اوشك ان اتولى منصب وال في عام ١٨٧٠ ؛ عرضوا علي حاليا منصب نائب . وعرض علي كليمان جانين باسم جماعة من الشبان ترشيح نفسي في عضوية في باريس .

أثّر في نفسي هذا العرض واغراني . غير ان الكتابة ترهقني وجهودي الادبية ترغمني على الرفض . ان منصب النائب مهنة شاقة على حد علمي عندما لا نريد ان نكون نوابا كسولين !

وبما اني رجل صادق ومولع بالعمل فاني افضل ان انجز روايتي » .

افتقرت رواياته الثلاثة الاخيرة في سلسلة روغون ـ مكارت التي صدرت بين عامي ١٨٩١ و ١٨٩٣ للحماس وهي قصة « المال » و « الطبيب باسكال » و « الانقلاب » . غير ان الاقدار لعبت دورها في مصير كتاب « الانقلاب » اذ انه يعتبر من اقل كتب زولا شأنا ولاقى رواجا كبيرا بالمبيع .

كتب شارحا لفون سانتن كولف الذي طلب ايضاحا عن تفاصيل الكتاب :

« لقد اتبعت النمط الذي اعتمدته دوما ؛ قمت بنزهات الى الاماكن التي يجب ان اصفها ؛ اطلعت على جميع الوثائق المدونة الغزيرة ؛ وتحدثت اخيرا طويلا الى الشخصيات التي بعثت بهذه الدراما . هذا ما قدم لي العون الكبير في تأليف قصتي « الانقلاب » . عندما اندلعت الحرب نشأت المهن الحرة بين المحامين والاساتذة الحديثين حتى بين صفوف الجامعيين والرجال المثقفين الذين لم يعينوا في الجندية بل انتسبوا اليها كجنود . كانوا يدونون خواطرهم وانطباعاتهم ومغامراتهم كل مساء وهم في العراء . لقد حصلت على خمس او ست

مفكرات ؛ كانت هذه المفكرات تنبض بالحياة . وكانت جميعها تتشابه .

غير ان هذه المعلومات الوفيرة التي جمعها وتحركات الجيش واسماء قواد الجيش ومفكرات المقاتلين في الساحة التي قرأها لم تتوصل جميعها ان تهب القصة الشعور بالحياة . مقارنة بسيطة بين « حرب وسلم » و « الانقلاب » وسنلاحظ كيف أفلح تولستوي في معالجة موضوع مماثل .

صور زولا نفسه بغرور في « الطبيب باسكال » « فالمعلم » جميل ، طيب فطن . لم يصور شخصية في حياته ويتعاطف عليها كما فعل في هذا الكتاب . فمياه غسيل الاواني وقطرات العرق المتصبب تتحول الى ازهار السوسن والورد ؛ وقسمت الرغبات الى درجة اصبح معها « المعلم » العاشق فتاة تصغره بخمسة وعشرين عاما رئيسا للملائكة ينحني ويقترب من قديسة .

مَن ادعى ان زولا ينظر الى البشرية نظرة قاتمة ؟ ماذا حدث للرواية الاختبارية ودقتها العلمية ؟ ان زعيم المدرسة الطبيعية عالج مواضيع اخرى وصوّر الوانا بعيدة عن مذهبه . هذا ما سينجلي عندما تبرز العظة في اعماله .

قسّم حتى الآن اعماله الفنية الى شطرين : النقد والرواية . ادعى ان الرواية تنشأ من النقد غير انه صور شخصيات حية رائعة واوساطا تنعم بالحياة الحرة . كان الاديب حاضرا وافكاره الشخصية هي التي عبَّر عنها في القسم الذي اعتبره البناء في عمله . احتل النبي مكان

الاديب . والمآخذ الذي اخذه على فكتور هوغو عمل بــه هو ايضا .

حين انجز زولا سلسلته كان في الثالثة والخمسين من عمره ؛ شرع بها عام ١٨٧١ وكان يبلغ الواحدة والثلاثين . لقد الف عشرين قصة في خلال اثنتين وعشرين سنة وكانت تحوي واحدا وثلاثين مجلدا وتتضمن الفا ومئتي شخصية. استطاع زولا ان يتأمل هذه المجموعة على رف مكتبته في ميدان، وكتبا ترجمها من مختلف اللغات الاوروبية .

آن له الآن ان ينعم بالراحة : غير انه استبعد هــذه الفكرة . فكر بأعمال جديدة وجد" فــي وضع تصاميمها . اختار العنوان، انه « المدن الثلاث » وهــي لــورد ، روما ، باريس . لقد قبِل التحدي الذي وجهه اليه بلزاك في روايته « الكوميديا البشرية » محاولا ان يعادل هذا الرجل الذي طالما اعجب به . لقد اخذوا على زولا انه يظهر دوما عاهات المجتمع دون ان يتطرق الى العلاج الناجع . اراد زولا ان يعمل جاهدا على تغيير تلك الفكرة فلذا انكب على الكتابة من جديد .

قضية دريفس

صدر كتاب « روما » وكتاب « باريس » عـام ١٨٩٦ و ١٨٩٧ .

وفي عـام ١٨٩٤ قصد زولا ايطاليا حيث استقصى المعلومات وجمع الوثائق لكتابه الاول . ثم عاد الى ميدان واكمل عمله هناك . اوقف القائد دريفس في ١٥ تشرين الاول من تلك السنة ؛ في ٢٢ كانون الاول صدر عليه حكم بالنفي مدى الحياة الى جزيرة الشيطان .

« كنت في تلك الاثناء في روما ولم ارجع الا في ١٥ كانون الاول . لم أكن اطالع كثيرا من الصحف الفرنسية . وهذا ما يفسر حالة الجهل واللامبالاة التي اقصتني عن تلك القضية . لم تثر هذه القضية اهتمامي عن كثب الا عندما رجعت الى قريتي عام ١٨٩٧ . عندها فقط شغلت خاطري تلك القضية وافادتني الظروف على الاطلاع على بعض الوثائق التي نشرت فيما بعد وكانت كافية لاقناعي ببراءة المتهم .

لم يشك احد في البداية بجناح دريفس : حتى الذين

سيمسون انصاره مثل كلمنصو وجوريس ، كانـوا يشنون هجماتهم عليه بعنف وضراوة . انتشر الخبر بامكـان براءة دريفس رويدا رويدا في باريس . لقد ابلغ الضابط بيكار في عام ١٨٩٦ رؤساءه باعتقاده ان « استرهازي » هـو الخائن الحقيقي . غير انه أرغم على الصمت وكتمان الامـر واقصي في مهمة الى افريقيا الشمالية . اذ ان مكاتب وزارة الحربية لن تعدل عن حكمها ؛ لان ذلك يمس بهيبة الجيش .

لو كان زولا يقيم في باريس لسمع دون ريب ما تناقلته الافواه من اخبار في المدينة . غير انه يقطن في ميدان منهمكا في تأليف ثلاثيته : كان يجهل ما يسمى بقضية دريفس او انه لم يعرها الاهتمام اكثر من اية قضية خيانة عادية .

غير ان القلق ازداد . فنائب رئيس مجلس الشيوخ شورير ـ كستر الوقور اعرب عن شكه . انه لمـن الصعب ارغامه على الصمت . لقد اندفع كليا في اظهار براءة دريفس . ومن جهة اخرى بدأ الناس يطلعون على رسائل دريفس التي يبعثها الى اهله . فهي تتسم بطابع مثير فعلا . كـان الاسير مصرا على براءته مما جعل بعض الضمائر تهتز لنصرته . تدخل اخيرا برنار لازار بدوره في هذا الصراع محذرا الراي العـام صراحة . ومنذ ذلك الحين سارت الحقيقة طريقها ولا شيء اعترض سبيلها . غير ان زولا لم يكن يشعر بتلك الانتفاضة التي سرت رويدا وألهبت فرنسا برمتها .

وقف زولا على بعض الحقائق في اواخر عام ١٨٩٧ فقط

عندما قصد باريس في فصل الشتاء ليقيم فيها وانجلت لـه الاحداث بوضوح. ولاول مرة منذ ثلاثين عاما شعر بدافع للتصرف والعمل يفوق ولعه بالتأليف ؛ عليه ان يكشف عـن جريمة مقترفة ضد شعب بأكمله .

لم يتردد كثيرا . ليست لديه ثمة مسافة بـين الفكرة والتنفيذ ؛ وهذا ما يؤدي به احيانا الى السذاجة كما فـي بعض صفحات الرواية الاختبارية . غير انه حاليا بعيد عن الآراء الذهنية ، ويعالج موضوعا يتناول قضية ظلم وتعسف يجب اعادة النظر فيها وابطالها .

اي شكل سيتخذ اعتراضه الجهاري وكيف سيعبر عنه ؟ واذا شعر انه مستعد لخوض المعركة ، فان تصميم الصراع ينقصه . انه يدرك تماما ان المعركة ستكون مريرة قاسية ويدرك كيف يعامل من تساوره الشكوك بعدالة الحكم . غير انــه لــم يتخاذل ولم يتقاعس . لقد قاسى ثلاثين عاما من المجادلة ولم تقر شجاعته بحدود او مستحيل . لـن ينتمي الـى فريـق الذين يهمسون بتشكـك ضميرهم ويتمتمون بالحقيقة . لقد قال عنه « باريس » انه يتحين الفرص الملائمة؛ وبالفعل : انها التي تقضي عليه اتخاذ جانب الحق والعدالة ببسالة واقدام دون الاكتراث بالعواقب الوخيمة . تحتفظ خطوة زولا بقيمتها في حقبة مماثلة حيث تهدد قضايا دريفس ان تمسي مالوفة وشائعة .

ان الصدفة هي المسؤولة عن شروع الاديب بالعمل .

التقى زولا فرنان دو روديس مديــر « الفيغارو » خــلال نزهة في باريس . نحن حاليا في كانون الاول مــن سنــة ١٨٩٧ ؛ ما هو الحديث الذي يتجاذب اطرافه الرجلان سوى مــا امسى « القضيــة » ؟ يشاطر دو روديس رأي زولا ؛ دريفس بريء من التهمة الملصقة به . ما هي الا ايام معدودة وظهر اول مقال لزولا في صحيفة دو روديس : صورة الدعوة (٥ كانون الاول من عام ١٨٩٧) . وهو يدعي ايضا علــى مضطهدي اليهــود وخاصة علــى « ادوار دريمون » مؤلف « فرنسا اليهودية » . اضطهاد اليهود ، الآن .

انه مذنب . لقد ذكرت مرارا كم تعيدنا هــذه القرية البربرية الــى الاجيال الغابرة وتثير سخط حاجتي للأخوّة وحبي للتساهل والتحرير البشري . انه لمن السخف والغباوة حقا ان نخوض حروب الديانات ثانية ونعود الى الاضطهاد ونرغب في ابادة السلالات في عصر التحرر والانطلاق هذا . ولن تنشأ هذه المحاولة الغبية الا في عقل غامض مخبول ، ومن كاتب مزهو بنفسه بعيدا عن الشهرة يصبو الى لعب دور مهما كلف الامر حتى لو كان دورا بغيضا . ولن اعتقد ان حركة كهذه ستتخذ اهمية حازمة في فرنسا ، في هذا البلد الحر بتقرير مصيره والذي يتصف بالعقل والمنطق السليم .

ها هي المساوىء الرهيبة . يجب ان اقر ان الشر قــد تغلغل في نفوس الشعب . لقــد تسبب مضطهدو اليهــود بمساوىء خطيرة منها قضية دريفس المحزنة : انهم المسؤولون عن نشر الذعر في أفئدة الناس . ألم يكن من الافضل والاسهل

والطبيعي البحث عن الحقيقة منذ ساورتهم الشكوك الجادة ، الا ندرك ان وراء تلك الحالة الجنونية الساخطة سما خفيا يجعلنا نهذي جميعنا ؟

وهذا السم هو بغض اليهود والنقمة عليهم الذي يصبونه في نفوس الشعب كل صباح منذ سنوات . انهم عصابة مخربين والجميل انهم يعملون باسم الحكمة وباسم المسيح والثأر والعدالة . ومن يقول لنا أن هذا الجو المتآمر لم يؤثر على المجلس الحربي ؟ من الطبيعي ان يخون اليهودي بلده . واذا لم نجد أي سبب بشري يفسر الجريمة واذا كان غنيا ، حسن السلوك مجتهدا نشيطا بعيدا عن الاهواء معصوما عن الخطأ ، ألا يكفي انه يهودي ؟

اليوم ومنذ ان طالبنا بالحقيقة فان سلوك مضطهدي اليهود امسى اكثر عنفا . واذا ظهرت براءة يهودي فيا لها من صفعة لخصومه ! أيعقل ان يوجد يهودي بريئا ؟ ثم تنهار الاكاذيب ويتلاشى اهل المذهب الذي لا يسيطر على زمرة السذج الا بالاهانات المفرطة والشتائم الوقحة .

لقد شعرنا بسخط هؤلاء المفسدين للعامة . ورأينا ويا للاسف ! الشعب الثائر الذي أفسدوه والرأي العام تائها وهذا الشعب العزيز المتواضع متحاملا على اليهود اليوم وسيثور غدا ليخلص القائد دريفس اذا اذكت نار العدالة المقدسة رجلا شريفا بينهم .

هذه رسالة وجهها زولا الى الشبيبة في ١٤ كانـون الاول .

« ايتها الشبيبة ! تذكري الآلام التي عانى منها آباؤك والحروب المروعة التي خاضوها وكان الظفر حليفهم لتنعمي انت الآن بالحرية . اذا أحسست بالاستقلال وتنقلت كما تشائين ، وعبرت في الصحف عن آرائك فهذا يعني ان آباءك دفعوا الكثير من دمهم وفطنتهم ثمنا لذلك . لم تري النور في زمن الاضطهاد والعبودية ، لم تصارعي للافلات مـن حسام الظالم المسيطر . اثني على آبائك بالشكر ولا تقترفي جريمة بهتافك الكذب وانخراطك بالقوة الشرسة وعـدم مسامحة المتعصبين ونهم الطامعين . فالديكتاتورية المسيطرة تنتظر في آخر المطاف .

أيتها الشبيبة ! كوني دوما الى جانب العدالة . فاذا حجبت عنك فكرة العدالة ستمضين الـى المهالك . وانـي لا اذكـر لـك العدالـة المشروعـة فـي قوانيننا لانهـا ليست سوى ضمانة للعلاقات الاجتماعية . ينبغي ان نجلها الاحترام طبعا لكن هناك فكرة اسمى للعدالة وهي التي تعتمد على المبدا ان كل حكم الرجال معرض للخطأ وتقبل بامكان براءة متهم دون الاعتقاد انها اهانة موجهة الى القضاة . أليست هـذه مغامرة من واجبها ان تنفح فيك حب الحق ؟ مـن سيهب لنصرة العدالة سواك انـت البعيـدة عـن صراعات المصالح الفردية وباستطاعتك ان تصرخي عاليا بأمانة وصدق ؟

ايتها الشبيبة ! كوني محبة للانسانية وسخية فـي

عطائك . حتى لو وقعنا في الخطأ كوني الى جانبنا وحين نقول ان بريثا يكابد ألما هائلا وينفطر قلبنا أسى عليه . فلنقبل لحظة وجيزة الخطأ الممكن فيحز الاسى في نفوسنا وتنهمر الدموع من مقلتينا . ان الحراس عديمو الرحمة والشفقة اما انت ، انت التي ما زلت تذرفين الدمع السخي وتعانين الشقاء ! كيف لا تحلمين بالشجاعة وتعملين على نصرة شهيد مظلوم وتنجدينه ؟ من سواك يحاول القيام بهذه المغامرة السامية ويهب للدفاع عن قضية خطيرة وعظيمة ويصد شعبا بأكمله باسم العدالة المثالية ؟ الا تخجلين من نفسك اخيرا أن يتلهف الشيوخ في سبيل قضيتك ؟ »

ان تدخل هذا الرجل الجديد وميله للصراع وموهبته في الجدل والشهرة التي اكسبته اياها أعماله التي طبعت بمئات ملايين النسخات في فرنسا وحدها ، أذهل الحزب المناوىء . وفي الحال وجه ليون بلوي ، باربي دورڤيللي ، روكفور ، ارنست جوده ، دريمون ، باديس موراس ، نيرانهم على زولا : ان كل الاسلحة صالحة حتى لو كانت دنيئة . وذهب « جوده » الى ابعد من ذلك ، لقد اثار الشك حول نزاهة والد الاديب فرنسوا زولا في مقال نشره في «الصحيفة الصغيرة» .

حين انخرط زولا في هذا التيار ، كان العنف على اشده . شاركت فئة قليلة من اليسار في هذه الحركة ولاذ الكثيرون منهم بالصمت . كانت المعتقدات الشخصية هي التي تحدد مواقف الافراد لا الميول السياسية . فالقضية امست مسألة ضمير .

لقد شيّد « بنك كاتوليكي » ـ لكي يلحق الخسارة برجال البنوك البروتستانت واليهود ـ اشهر افلاسه قبل قضية دريفس بوقت وجيز واتخذ هذا الصراع طابعا اجتماعيا وعنصريا . وهيأ له دريمون برسالة هجائية . وكانت « الصحيفة الصغيرة » التي تطبع منها مليون نسخة تنشر الاكاذيب وتبث الكراهية حتى الى اقاصي القرى النائية . وهكذا امتنع كثير من الناس عن ابداء رأيهم بصراحة رغم اقتناعهم ببراءة دريفس .

لم يتوان زولا في نشر مقالاته المتعددة ؛ وخاصة في صحيفة « الفجر » ، حيث وجه رسالة الى فليكس فور ، عرفت تحت عنوان « اتهم » . لقد كشف عن الدسائس والمكائد التي حيكت حول هذه الدعوى بفطنة وبسالة ، فحكم عليه بالسجن سنة واحدة ودفع جزاء قيمته ثلاثة آلاف فرنك .

قصد زولا عندئذ انكلترا حيث مكث احد عشر شهرا متآمرا داعيا نفسه باسكال مستلما البرقيات بلغة متفق عليها من فرنسا وشارعا في كتابة اول مجلد من الانجيل : « اخصاب » .

عندما علم انه سيعاد النظر بالدعوى رجع الى باريس ؛ غير ان دسائس المكاتب الحربية تغلبت مرة اخرى : أدان مجلس الحربية دريفس للمرة الثانية . وتفجرت نقمة زولا وسخطه فى مقال جديد .

غير ان الحقيقة ما فتئت ان تجلت .. لقد اقدم الكولونيل هنري على الانتحار . وفر الكولونيل استرهازاي الى الخارج واطلق سراح دريفس .

اطلق سراحه لكن لم يرد اعتباره . انتظر حتى عـام ١٩٠٦ ليحقق ذلك . يعبر زولا عن فرحته الى زوجة المحكوم عليه في رسالة وجهها اليها عن طريق صحيفة « الفجر » في ٢٩ ايلول من عام ١٨٩٩ :

« اعادوا اليك البريء ، الشهيد ، ارجعوا الـى زوجته وابنه وابنته الزوج والاب وانـي اتخيل العائلة التـي جُمع شملها اخيرا ورفرفت عليها اجنحة السعادة . انـي اشاركم هذه اللحظات اللذيذة التى ضممتم فيها هذا الميت المبعوث الحي الحر الذي خرج من اللحد. انه ليوم ظفر واحتفال » .

ساهم زولا فعلا في تحقيق هذا الظفر . لقد عُهد انـه اديب كبير ؛ واظهر في عام ١٨٩٧ الى عام ١٩٠٠ ان شجاعته لا تقل مستوى عن موهبته وفنه .

غير ان القراء الذين تحولوا في تلك الفترة عن مطالعة كتبه اتجهوا بعيداً عنه ؛ ورغم ان شهرته اتسعت آفاقها فـي الخارج ظل رقم مبيع كتبه في انخفاض . لقد كلفته قضية دريفس غاليا . عرضوا عليه اموالا طائلة للتطرق الـى هـذا الموضوع في انكلترا لكنه أبى ان يعرض في الخارج مقالات تتناول صراعات فرنسـية داخلية . ورفض ان يُدفع لـه عن المقالات التي نشرتها الصحف الفرنسيـة . كـان يبغض أن

يتدخل المال في قضية نصرة العدالة .

قال « باريس » يوما الى زولا :

« ان جبال الالب تحول بيني وبينك » . لقد لاموا الاديب على انه تحدر من اصل ايطالي ؛ وبماذا لم يتهموه ايضا في « الاوساط المفكرة » ! ويكفي بلا شك ان نلقي نظرة على تصريحات باريس نفسه التي تتعلق بدريفس خلال الدعوى التالية: « لكي نصيب متحزبيه الحاقدين يجب ان ننال منه . هيا لا ينبغي ان يعيق هذا الحاجز الواهن اقدار بلادي » . يا لها من اقدار غريبة تلك التي تجد نفسها ملتزمة بقضية قذرة كتلك القضية ؛ ويا له من مفهوم غريب عن بلاده في ان يظن انها مهددة بالحقيقة في محاولة اصلاح التعسف . . .

غير ان الاوساط العمالية شاطرت زولا رأيه . اتهموه باهانة العمال عندما نشر « الحانة » و « جرمينال » . اقاموا مأدبة في سنة ١٩٠١ للاحتفال بصدور كتابه « العمل » .

ترأس جون لابوسكير هذا الحفل ممثلا زولا الذي اعتذر بهذه العبارات :

« أقدم لك فائق شكري عن فرحتي والشرف الكبير الذي تقدمت بـه بقبولك دعوة المأدبة وترؤسها .

وان لم اكن بجوارك فهذا يعود الى انـه بـدا لـي من الافضل ان أكون بعيدا . ليس المهم شخصي ولا عملي : ان ما تحتفلون به اليوم هو السعي الى تحقيق العدالة المثلى ، انـه

الصراع من اجل السعادة البشرية . اني معكم جميعا . الا يكفي أن تكون افكارنا موحدة متشابهة ؟

اماكننا كبيرة ، والمستقبل هو مجال تحقيق الاحلام . هناك واقع اكيد يشير اليه كل شيء ويثبته وهو : ان المجتمع الآتي يعيد النظر في تنظيم العمل وهذا التنظيم وحده كفيل بتوزيع عادل للثروة . كان « موريه » رائد هذه الحقيقة . لقد اخذتها عنه ولا يهم السبيل الذي يؤدي اليها لان بلد السلام القادم في آخر المطاف » .

ومما لا شك فيه ان زولا تغير كثيرا خلال خمسة عشر عاما . لم يعد يلوم هوغو على رؤياه الخيالية :

« حتى حين كان يصرع الرهبان والملوك ، كان يرفع شعار اخوّة الشعوب المثالية ، غير ان ذلك لن يمنع الشعوب من التطاحن والصراع الدامي في العصور المقبلة » . كتب زولا الى ألفرد برونو في ٨ آب عام ١٩٠٢ عندما أنجز كتابه « الحقيقة » الذي يعالج قضية دريفس :

« يا صديقي الحميم ، لقد انجزت اخيرا هذه الحقيقة الرهيبة التي تطلبت مني جهودا عظيمة خلال سنة . انه عمل شاق ويتضمن دراسة شخصيات متعددة واحداثا متفرعة متشعبة . غير اني ما زلت نشيطا وافكاري وحدها تحتاج الى الراحة » .

ويختتم بهذه الكلمات :

« سترجعون الينا ثلاثتكم متمتعين بصحة وعافية وهذا ما يجب لقهر القدر » .

غير ان القدر لم يتوان بسحقه هو الآخر .

المنيـة

وافت المنية كلا من الاخوين غونكور ، فلوبير الفونس دوديه وموباسان . واتى دور بول الكسي . وفي ٦ آب عـام ١٩٠١ عبَّر زولا عن شجنه قائلا :

« شكرا ايها العزيز سمنوف على الرسالة التـي بعثتها الي بمناسبة وفاة العزيز الكسي . لقد غمرتني الكآبة والاسى اذ ان جزءا من حياتي الغابرة مضت معه برحيله . وظللت وحيدا في هذه الجماعة الادبية » .

غير انه امسى وشيكا هو ايضا من النهاية . لقد صدرت ثلاثة اجزاء من الانجيل ؛ لم يسنح لـه الوقت بتأليف الجزء الاخير وهو العدالة .

قصد باريس في ٢٩ ايلول من عام ١٩٠٢ ليستقر فيها في فصل الشتاء . وكان المنزل المهجور منـذ سنـين رطبا ؛ فأشعلوا نارا في الموقد ثم تناول زولا وزوجته عشاء فاخرا وأويا الى الفراش .

استيقظت مدام زولا في منتصف الليل وقد اضناها الارهاق . فقصدت الحمام وتقيأت ؛ ومكثت على هذه الحال مدة طويلة بينما تحاول استعادة قواها . وعندما رجعت الى الحجرة كان زوجها قد استفاق بدوره ؛ وكان يشعر بانحراف في مزاجه وظن انه يعاني من سوء هضم . فنهض ثم هوى على الارض . حاولت مدام زولا لفت انتباه الخدم غير انها لم تفلح واغمي عليها .

في حوالي التاسعة صباحا قرر الخدم فتح باب الحجرة، بعد ان ساورهم القلق . كان اميل زولا قد اسلم الروح ؛ ونقلت زوجته الى المستشفى . كان الاديب يبلغ اثنين وستين عاما ؛ توفي دون ان يشعر اختناقا .

سار في مأتمه عدد غفير من الناس الاحد في ٥ تشرين الاول . ووري جسده في مقبرة مونمارت ، والقى اناتول فرانس خطابا تأبينيا اختتمه بهذه العبارات :

« لا ينبغي ان تبعث حياته الشفقة في نفوسنا لانه شقي وتألم . انه يثير اعجابنا . بلغ مجده ذروة القمة رغم ما عاناه من بلاهة وجهل وقساوة مجتمعه .

« فلنحسده : لقد جلل وكرم وطنه والعالم بعمله الرائع القيم » .

وبعد مضي ٦ سنوات في ٦ حزيران من عام ١٩٠٨ نقلت رفات زولا الى « الباتيون » مما اثار صراعا كما في عهد قضية دريفس . ان عظمة زولا امتدت الى ابعد من موته .

شخصية زولا ، ميوله واهواؤه

ان التصوير العام لحياة زولا وخطاه الثابتة في شق طريقه كأديب لا تقصي عن عمله بعض الغرائب والمناقضات . ان جانب الاهواء والشك لا يستأثر بالاهمية الكبرى في حياته التي كرسها للعمل المجدي على ما يبدو وبناها على قرارة النفس المطمئنة . وحين اكتشف مراده شق سبيله بثبات وعزم لا يثنى . لكن قل ما يخلو الوجود مهما بدا مستقيما من الهفوات الظاهرة او الخفية .

ان ما يثير التساؤل هو كيف ان اميل زولا تراجع امام الواقع حتى الواحدة والعشرين من عمره واعلن انه مرعب فظيع ثم امسى فيما بعد زعيم المدرسة الطبيعية . غير انه ليس ثمة عمل فني واحد يعبر عن آرائه ومفهومه للحياة وهذا ما يثبت ان مكان زولا الحقيقي ليس هنا .

ما يلفت الانتباه هو دحضه لبرودون في عام ١٨٦٦ وكان اميل زولا في السادسة والعشرين من عمره حين نشر مجموعة مقالات ودراسات تحت عنوان « هذا ما اكرهه » . لقد ادرك مبتغاه في الحياة واقبل على كتابة « تريز راكين »

واوشك من تأليف سلسلة روغون ـ مكارت . كان يدرك تماما ما الذي يصبو اليه ، ما الذي يهواه وما الذي يبغضه . لقد اختار حياته . كتب في « هذا ما اكرهه » المشورة والنصائح التي وجهها الى تيودور دوريه في عام ١٨٧٠ وهي :

« لا يكفي ان نتكلم بما هو حسن عن الذين نحبهم ؛ ينبغي ان نظهر شر الذين نبغضهم » .

وهذا ثناؤه للبغض :

« ان الكراهية مقدسة . فهي تعبر عن سخط وحنق الافئدة القوية الباسلة ، والازدراء المقاوم لهؤلاء الذين يبغضون في الحماقة والعدم . ان الكراهية هي المحبة ، هي شعور النفس السخي هي العيش في احتقار الاشياء المخزية البلهاء .

ان الكراهية تخفف الآلام ، وتقيم العدالة وتنمي شعور الانسان .

... ان قيمتي تكمن في الوقت الراهن في اني وحيد واني أضمر الشحناء والضغينة .

اني أمقت الاناس المعدومين العاجزين ؛ انهم سبب ازعاجي » .

لقد ذهب في تفكيره حتى انه قال :

اني افضل ، مثل ستندال ، الاثيم على الابله . ينبغي ان

يلقى بالبلهاء زمرات زمرات في ساحة الاعتصاب . اني ابغضهم » .

وهو يؤكد ايضا :

لست اهتم بالجمال والكمال . اني اسحر من العصور العظمى . ان الحياة تشغلني ، والصراع ايضا . اني مسرور وسط ابناء جيلي » .

غير ان هذا الكتاب بعيد عن اظهار العقيدة التي نجدها في الرواية الاختبارية . ليست سوى انطباعات تلقائية نابعة من القلب والنفس . كان زولا يعبر دون تكليف دون ان يتقيد بمناهج المدرسة . تظهر لنا دراستان لزولا في هذه المجموعة احداهما عن عمل ظهر بعد وفاة برودون والآخر يتناول بسكال عرضيا ، تظهر زولا غير ما ألفناه وعهدناه .

أعلن الاديب الشاب عدم انتمائه الى اية مدرسة ادبية عندما تطرق الى نقد « مبدأ الفن ومراده الاجتماعي » . اظهر زولا سخطه ضد برودون الذي يعتبر الفن اداة ملذة او منفعة اجتماعية وطالب بأعلى صوته بحرية الفنان المطلقة ؛ هو يرفض الاسر والعبودية مهما اضفي عليها من ألوان براقة . انه يؤمن بمبدأ حتمي وهو : مبدأ الابداع الفار من كل قيود الحزب او الطبقة ؛ ولا يرى سوى حقيقة صادقة صحيحة وهي حقيقة الفنان بصدد عمله دون الاكتراث بأي مفهوم آخر . وهذا ما يعبر عنه بطريقة عنيفة :

« ان اتحادكم ومساوئكم تفجعنا . اننا نعبر عن شعورنا

ونؤلف بجسدنا وروحنا ؛ اننا نعشق الحياة ونهبها ، كل يوم قليلا من كياننا . لسنا في خدمة احد ونرفض ان نشاركم هذه الجمعية » .

وكتب ايضا هذه الجملة الرائعة :

« اذا تساءلتم عن سبب وجودي في هذا العالم انـا الفنان ، سأجيبكم : « اريد ان احيا حياة شريفة » .

وهو يعلن بعناد وتصلب انه يعمل منفردا :

« اني على خلاف تام مع مبادىء برودون : هو يرغب ان يكون الفن نتاج الامة وانا اطلب ان يكون الفن نتـاج الفرد » .

ويلح ايضا :

« ان فني هو نفي وانكار للمجتمع ، انه تأكيد للفرد بعيدا عن كل القواعد وكل المتطلبات الاجتماعية » .

كان الخطاب حارا . وهذا النداء يحمل الينا بلا شك صوتا مبشرا تنبئيا . لقد اشار زولا منذ قرن تقريبا الى خرق الحكم الذي كاد بعضهم ان يرتكبه ـ وهم يهتفون « لتحيـا الحرية » ويقيدون الحرية .

يقر زولا باعتراف يبدو غريبا فـي الصفحات التـي يكرسها لرواية الفونكور وهي جرميني لاسرتو :

« لقد فسد ذوقي اذا اردتـم ؛ انـي ارغب بالوجبات الادبية الدسمة ، واعمال الانحطاط حيث تستبدل صحة

وعافية العصور الكلاسيكية بنوع من الحس السقيم » .

أيسعنا اخيرا ان نتخيل فردين ذوي آراء متضاربة ومتناقضة كزولا وبسكال ؟ هكذا يتصرف الاديب الطبيعي عند مطالعة « الافكار » .

« اريد أن اعبر عن الاثر الذي تولده في نفسي مطالعة صفحة من كتاب بسكال حتى ولو نعت بقلة الذكاء والفطنة . تولاني الذعر من جحوده واكثر من ايمانه ويقينه ؛ ارهقني مظهرا كل اهوال الشك غير اني لن استبدل رعشتي هذه برعشة ايمانه . ان بسكال يثبت تعاستي دون ان يتوصل الى اقناعي ان اشاطره شقاءه . لن اتغير حيال كل هذا رغم ان القلق يسيطر على نفسي الدامية » .

أليس هذا نفس الموقف ونفس القلق العميق العاجز عن تغيير العقائد لدى زولا عندما يتطرق الى موضوع « الكوميديا الفنائية في فصل واحد » . ويتناول دراما بعث لازار ؟ فوالده هذا الاخير وزوجته وولده يتوسلون الى المسيح ان يرجعه اليهم . غير ان المبعوث يرفض العودة الى الحياة بعد ان ذاق طعم الموت ...

كم كان لذيذا يا يسوع ، هذا الرقاد القاتم ، هذا الرقاد العميق الخالي من الاحلام . لم أذق مرة عذوبة الراحة المطلقة؛ لم اجدها الا في اللحد . اخيرا رقدت واستسلمت لملذات الليل والصمت اللامتناهية .

لم يقدم شيء من الارض لا صدى صـوت ولا رعشة نهار . وكنت ساكنا بلا حراك آه ! انه سكون ابدي وغبطـة لامتناهية مقدسة في زوال وتلاشي العالم .

ايها المعلم ، لماذا ايقظتني ؟ لم هذه القسوة فـي نـزع ميت من سعادته بتذوق السبات الابدي ؟ [...]

المسيح . ـ ايهـا الكـائن التعيس ، لقـد اراد ذلـك اصدقاؤك وذووك من اجل سعادتهم . ستحيا ثانية. لازار .ـ أحيا ثانية كلا ، كلا ! أما قاسيت وشقيت في حياتي ؟ لقـد خلقت دون ان اعلم السبب ولم اعلم كيف حييت ؛ ستفرض علـي الشقاء ثانيـة اذا اعدتني للحياة علـى هـذه الارض البائسـة !

أي ذنب اقترفت لكي تعاقبني بهذه الطريقة ؟ أحيا ثانية يا للحسرة ! واشعر بنفسي تموت كل يوم فى جسدي ، ولا اتحلى بالفطنة الا لبعث الشك ،ولا بالارادة الا لكـي انفـي وارفض ، ولا بالحنان الا لأذرف الدمع على اشجان فؤادي !

لقد انتهى كل شيء ، وتخطيت مرحلة الموت هذه البرهة الفظيعة الكافية بتحطيم الحياة بأكملها . واحسست بسكرة الموت في النزاع الاخير والدم يمضي من اعضائي ، والنفس الاخير يفارق جسدي . أتريد ان اذوق هذه الحسرة مرتين وان اسلم الروح مرتين لا ايها المعلم لا !

الام : ـ لازار الا تتعرف علي ؟ اني والدتك لا تعلم مدى سعادتي عندما شاهدتك حيا ترزق . آه ! يا لها من غبطة

عظيمة ان تكون لي واحفظك قريبا مني ثانية ! تعال لاخدمك كما في الايام الغابرة عندما كنت صبيا .

لازار . ـ كلا ، كلا ، ارجو ان تتركيني في هذه السعادة اللذيذة . سوف اعاني كثيرا لو فقدتك وانا حي ! ستلاقيني قريبا وتدركين كم هذا لذيذ ! لا شيء يعادل لذة الرقاد هذه .

الزوجة . ـ وانا يا لازار زوجتك التي تتنهد بعد عناقك وترتجف هنا بعد رحيلك . الا ترغب في التقرب الي واسعادي ؟

لازار . ـ يا زوجتي العزيزة . لست سوى زوج خائن رقد في سرير امرأة اخرى ، سرير أعذب خالد في الذكرى . لقد غفوت مع الموت هذه العشيقة الابدية . وكم كان ذلك ممتعا ان ارقد بين ذراعي السكون والليل وان شفاهي لا تنفع ان تكون شفاها حية .

الطفل . . وانا يا ابي ، انا ولدك هل ستنساني ؟ كنت تمسك بيدي وتقودني عبر الطرقات . هل ستتركني هكذا وحيدا ؟ وكنت تردد على مسمعي كل صباح يجب ان تحب الحياة .

لازار . ـ الحياة آه ! لقد هويتها بكل مشاعري . حييت كما ينبغي وسعدت في الحياة . وستحيا هكذا يا ولدي وتكمل مهمتي ! ستقودك والدتك . لقد اديت مهمتي ورقدت عندما اتى المساء ولا يحق لاحد ان يوقظني من سباتي اللذيذ .

المسيح . ـ الا تريد اذن ان تبعث الى الحياة ثانية يـا اخي ، ايها الرجل التعيس الذي يثير احزاني ؟

لازار . ـ كلا ، كلا ! لا تحكم علي بهذا العذاب الاليم الذي لم تحكم به على احد من قبلي . لقد احببتك دوما وكنت لك خير خادم ايها المعلم لا تجعل مني مثلا اغضبك الـذي سيهول الاجيال القادمة .

الطفل . ـ ابي هل شاهدت السماء ؟ أمن اجلها تتركنا؟

الزوجة . ـ اية ملذات فائقة القدرة تناديك الى النعيم؟

الام . ـ حدثنا بما رأيته في الناحية الاخرى من الجدار الذي لا يعود منه احد ابدا ؟

لازار . ـ لا شيء، لا شيء، لقد غفوت . انه الظلام القاتم السائد والسكون الابدي . لكن لو تدركون كم كان ذلك لذيذا بأن لا نكون ولا نوجد وان نغفو في العدم ! ايها المعلم اذا استطعت اتوسل اليك ان تقوم بمعجزة اخرى وتعيدني الى اللحد دون ان اشعر بالالم وان اخلد الى رقاد ابدي .

يا امي ، يا زوجتي ، يا ولدي ، يا اصدقائي ، اذا تكنون لي الحب كونوا عادلين تجاهي توسلوا الى المسيح ان يعيدني الى الموت العذب الهنيء الذي لا يحق لأحد ان ينتشلني منه .

الام . ـ قم بهذه المعجزة ثانية . اني ابغي سعادة ولدي وليرقد وينتظر قدومي فهو يعلم اين تكمن السعادة !

الزوجة . ــ اني اتوسل اليك ايضا ان تقوم بهذه المعجزة . ستظل ذكرى قبلاتنا أحر من هذا الشاحب الآيب من اللحد . سأكون سعيدة بسعادته .

الطفل . ــ ان ابي مرهق . قم بهذه المعجزة فليرقد دون ألم . لن تتوقف الحياة فأنا هنا لأكمل الطريق .

النوبة . ــ تتوسل اليك دون ألم . لن يتألم لازار ثانية، لا ينبغي ان يتألم . قم بهذه المعجزة وليرقد لازار دون ألم .

المسيح . ــ اجل ، اجل ، دون ألم يا لازار الشقي . . . كان ذلك مرادك وصفيت ، وادركت كل شيء الآن . ان الموت هو العذوبة بعد شهوات الحياة . ان قلبي القاسي ينزف دما لأجلك . انه لمن الحكمة والعدل والحسن ان ترقد ثانية .

لازار . ــ اشكرك يا يسوع !

(ويدخل الى اللحد واقفا)

المسيح . ــ ارقد يا لازار !

(فيرقد لازار) .

ارقد يا لازار !

لازار بصوت خافت . ــ يا لها من لذة ! شكرا يا يسوع!

المسيح . ــ ارقد يا لازار !

لازار بصوت منخفض اكثر . ــ يا له من ظلام شاسع ، من سكون لا متناهي ، شكرا يا يسوع !

(ويتلاشى الصوت)

المسيح . ـ ارقد يا لازار !

(خيم الصمت) .

اعيدوا الحجرة .

(اعاد الرجال الثلاثة البلاطة على الضريح) .

آه ! ايها المخلوق البشري التعيس ، مخلوق للالم والبؤس ، ارقد ، ارقد الآن سعيدا الى الابد .

الجميع . ـ آه ! يا لازار التعيس ، ايها الرجل المضنى المنهك من الاسى والالم ، ارقد ، ارقد الآن سعيدا الى الابد .

[ميدان في ١ كانون الثاني ١٨٩٤]

ينبغي ان نذكر بلا شك بين غرائب زولا ولعه بالاشياء الدينية . يوجد على مكتبه يسوع من العاج وكأس وصندوق القربان المقدس وغمد يحمل صورة تمثال العذراء . وجلب معه من لورد سبحة ضخمة .

لمن المستغرب ان يحتفظ زولا دوما على مرأى منه وفي متناول قبضته معظم هذه الاشياء . كان يعتبر نفسه رجل علم واديبا ينكر كل ما هو فائق الطبيعة ، صابا اهتمامه على كل ما هو اجتماعي ، وغاربا بنظره عن العلوم النظرية . ما الذي يجذبه اذن الى هذه الاشياء التي تشهد على الايمان الغريب عنه ؟ أكان متأثرا بهذه الاشياء الدينية أو كان يسعى الى اثبات نظريته بهذه الرموز التي لم يعتبرها سوى خرافة ؟

يُخشى ان يكون زولا قد حمل معه الرد الصحيح لهذه

الاسئلة وهو الذي كان شحيح العطاء بالمعلومات الشخصية الحميمة . من واجبنا ان نقارب بين الذي ذكرناه وبين الذي دفعه الى تصوير كثير من الرهبان في رواياته . كلهم رديئون او متوسطو الذكاء .

أليس هذا وجها آخر لطبيعة زولا المعقدة ، نستطيع كشفه في تصوره الشخصي في عمله وفي الشهرة الواسعة التي اكسبه اياها وفي العمل المرهق الذي حكم بـه علـى نفسه يوما بعد يوم وكرس نفسه له ؟ تبدو هنا ايضا ثقة زولا الغريبة من نفسه وقد اقلقها الشك العميق الخفي . الذي كف نجاحه تحت تأثيره ان يكون دليلا ، وتعرضت حياته لخطر الزوال والتدمير في ظل التفاهة .

لن نسرع بالجزم ان تأكيدات زولا التي رددها ــ ان العمل هو سر سعادته الوحيد ــ ليست سوى تصرفات دفاع من جهته وتجمد ارادة ضد هذا الشك الذي ساوره واقلق مضجعه . يقابل زولا الرجل البسيط عادة ، رجل آخر معذب ومرغم على التصرف بعنف لكـي يحافظ على معنى وقيمة عمله . والاسطر التي سنقرأها اخترناها من كتابه « العمل »، حيث صور زولا نفسه بشخصية ساندوز وصور في الوقت نفسه سيزان من خلال شخصية كلود ــ الا توحي رغم كل شيء ان هذا الشك كان متعمقا في نفسه وان الايمان وحده كفيل بأن يثور عليه ويحبطه ؟ يجب ان نقارن هنا بين تصرف « لازار » في الصفحات التي وردت آنفا واعتراف «ساندوز»

المريع ــ وتقلب رايه المفاجىء الذي يتخلص بواسطته ويقهر اضطرابه ...

... اصغ ، لقد استولى العمل على وجودي . ورويدا رويدا سلبني والدتي ، زوجتي كل ما احب . انهــا البزر الموجود في الجمجمة الذي يلتهم العقل ، ثم يجتاح الجذع والاعضاء ويضني الجسد برمته . حالما اقفز مــن سريري في الصباح يتمسك بي العمل ويسمرني على منضدتي دون ان يترك لي وقتا قصيرا لكي اتنشق الهواء العليل ؛ ثــم يتبعني الى الافطار وامضغ جُمَلي مع خبزي ؛ ثم يرافقني عندما اخرج ويجلس في صحني عند العشاء ، ويرقد في المساء على وسادتي دون رحمة حتى اني لا استطيع ان اوقف العمل الذي شرعت به . والذي يرافقني الى اعماق سباتي ... اقبل والدتي ولشدة سهوي اتساءل بعد عشر دقائق ان كنت تمنيت لها يوما سعيدا . لا تملك زوجتي زوجا فأنا بعيد عنها حتى عندما تتلامس ايدينا . اشعر احيانا بأني اجعل ايامهم تعيسة واشعر بالندم لان السعادة تنبــع مــن الطيبــة والصراحة والبشاشة في العائلة . لكن هل استطيع ان أفر مــن اقدام الوحش ! ثم اقع في حالة سهو ساعات الخلق والابداع . لا بأس ان كانت صفحات الصباح جيدة وما يهمني اذا ظلت احداها متأخرة !

سيضحك المنزل او يبكي على حسب سير العمل ... لم أقم بنزهة واحدة ولا زيارة الى صديق ولا لحظة كسل ! حتى ارادتي سلبني اياها ، لقد اعتدت على ذلك واغلقت باب العالم خلفي وقذفت بالمفتاح من النافذة ... لا احد سواي

وسوى عملي في هذه الحجرة المعزولة ، سيلتهمني ولن يبقى شيء !... لا اطرق الى الشتائم التي توجه الي . وعوضا أن تزعجني فهي تثيرني ... يكفي ان ندعي اننا وهبنا حياتنا لعمل ما واننا لا ننتظر عدالة فورية ولا امتحانا صارما واننا نعمل دون اي نوع من الامل فقط لان العمل ينبض تحت جلدنا كالقلب خارجا عن ارادتنا ؛ ستوافينا المنية ، وعزاؤنا الوحيد اننا سننعم بالحب يوما ما ... آه ! لو يعلم الآخرون كيف احمل غضبهم ! غير اني مرهق ولا اجد لحظة سعيدة في حياتي . يا الهي ! يا لها من ساعات رهيبة عندما اشرع بتأليف رواية ! تسير الفصول الاولى بطريقة حسنة ثم اجد نفسي تائها ، غير راض عما قمت به هذا اليوم حاكما على الكتاب بالاخفاق والفشل وانه دون مستوى غيره وكم أتألم . وعندما انجزه ، آه ! عندما انجزه يا لها من سكينة وراحة ! وليست هذه فرحة الرجل الذي يعجب ويتأمل ثمرة عمله ، بل تجديف الحمّال الذي يلقي بحمله الذي ارهقه ... ثم يتكرر كل ذلك ؛ ثم سيتكرر دوما ؛ سأموت حانقا على نفسي ساخطا لعدم موهبتي ولاني لم أخلف رواية جيدة وكتبا متراكمة ؛ سيساورني الشك عندما ارحل من هذا العالم في عدم كفاءتي وكلمتي الاخيرة ستكون مرادي ان اعيد عمل كل شيء ...

كان متأثرا واختنقت كلماته وصاح صيحة مضت معها كل شاعريته غير النادمة :

— آه ! من سيهبني حياة جديدة ، حياة ثانية لكي يختلسها مني العمل واموت ايضا !

آراء في زولا بعد وفاته

مرت خمس وستون سنةعلى وفاة زولا؛ وهذا وقت كاف للحكم على عمله وتخلصه من تقاليد زمنه والتصرفات الوجيزة التي أثارها والني من شأنها ان تحر"ف معناها ومغزاها .

يجب ان نقر بذلك . كما يحصل غالبا عندما يكلف اديب نفسه لانتاج نستطيع نعته بالصناعي . كان النقص كبيرا . غير ان قمم هذا العمل تنجلـي الآن بوضوح . اعتقد ان « تريز راكين » ، « الحانة » « نانا » « جرمينال » و « الحيـوان البشري » لن تفنى ابدا ؛ فهي جديرة بالبقاء والخلود .

اما تأثير زولا فلا جدال فيه ليس في فرنسا فحسب بل في الادب العالمي . كثير من الادباء المعاصرين مدينون له بشيء ما . لقد اعطانا زولا طعم الحقيقة المرة والشجاعة في اظهارها . وكما يقول نيتشه واضحينا مثله « اكثر وقاحة ولكـن اكثر صراحة » .

اخذ على المذهب الطبيعي انه يعطي عن الانسان صورة حقيرة ولا يتناول فيه الا الدنيء واظهار تحت شعار الحقيقة

كل ما يتعلق بالغريزة والطبيعة الفيزيولوجية . مما لا شك فيه ان عظمة دستويفسكي تكمن في انه صور الفرد في كماله في حقيقته المطلقة : الجسد والروح . كلما حاول زولا وسعى في تصوير الوجه الآخر للانسان اخفق ؛ فهذا عالم محظور عليه . . . ينبغي ان نحكم عليه كما هو ، انه فنان ذو مقدرة قليلا ما تعادلها مقدرة . واذا لم يصور لنا في صورة جديدة فنحن مدينون له على الاقل لانه اظهر جماعات كاملة كما لم يفعل كاتب من قبله .

لا تقتصر عبقريته على اكتشاف هذا المثال : فالتفكير وحده لا يكفي يجب ان ينفخ من نفسه لكي يهب الحياة الى هذه اللوحات الهائلة . ان النتائج في هذا المجال من بعده واخفاق المحاولات النادرة التي قام بها من بعده ادباء خاطروا في هذا السبيل تثبت ان المواضيع التي خاضها زولا لم تكن الا بمستوى موهبة فريدة .

من تعاليمه درس بالبسالة والشهامة : كل ما هو حقيقة هو واقعنا ولا ينبغي ان يمنعنا شيء من ابدائه واظهاره . نعلم ما يهدد هذه الحرية التي يجب قهرها .

ينبغي التأكيد اخيرا ان الجزء الحي من اعماله عاد بالمنفعة الكبيرة من الناحية الاخلاقية ومما لا شك فيه ان زولا قدم العون الاكبر في اللحظات التي كان خاطره فيها بعيدا عن هذه الفكرة . لقد اظهر ظلم تفاوت الطبقات الاجتماعية التي لا تستند الا على الاصل والمنشأ . . . فبينما كان ادباء علم

الجمال يشيحون بنظرهم عن الطبقة العاملة او يلامسونها دون ان تلفت انتباههم ، كرس لها زولا مع جرمينال تحفة فنية نادرة . وهذا العنوان الشهير سيبقى خالدا على مر الزمن .

كان الشعب وفيا لميل زولا له عندما ادرك حقيقة مشاعر الاديب نحوه . وفي حياته صورت الشخصيات البارزة من كتاب « الحانة » على مواسير المياه ؛ وزينت الصحون بلوحات ومشاهد من كتبه؛ وبيعت حلى تحمل رسمه. وريشات تحمل اسمه ؛ نصيبات تصور « جرفيز » وهي تنهال ضربا على غريمتها . ونشأت صناعة بسيطة لصور مختارة من روايات زولا . ولن تقل شهرته في هذا الزمن ايضا ؛ اذ تتهافت الطبقات الشعبية على مطالعة قصصه .

كان جديرا بهذا التكريم والتبجيل اذ ان زولا لا يتكلم جيدا الا عن الشعب ؛ وكلما ابتعد عنه افتقر عمله للقيمة الادبية . فهو لا يقترب من مثاله اذ انه يقيم معه رغم انه لا يرى فيه ناحية التفكير والاحلام والخلق والمراتب الرفيعة التي تحتل مكانة هامة في نفس العامل احيانا . ليس قديرا بمجال الرقة ولا نستطيع ان نطلب من مصارع ان يتحلى بأناقة وكياسة الراقص .

وكما هو فان زولا يعتبر عظيما ؛ وتجعل منه عظمته حدثا فريدا . فما زال يثير الشوق والحنين .

آراء في آثار زولا وشخصيته

اوكتاف ميربو :

من السهل تعريف وتحديد الكراهية المفعمة بالاعجاب التي ما زالت تلاحق زولا . انها تنبع من موهبته الفذة اولا لان الضعفاء لا يغفرون للاقوياء ، ولان السيد زولا شق طريقه بنفسه في الحياة . اذ انه من دواعي السرور الاناني ان يتخيل الضعفاء أن لهم فضلا في مجد اديب . من المؤسف ان يكون السيد زولا اكتشف نفسه بنفسه . سار قدما مدفوعا بعظمة عبقريته وثبات بسالته . لم تزل قدمه يوما الى المستوى الخسيس ...

(الصباح ، ٦ تشرين الثاني ١٨٨٥)

أناتول فرانس :

ايها السادة ، عندما رأينا اعمال زولا تسمو شيئا فشيئا دهشنا في مدى عظمتها . كنا نتأملها ونعجب منها ، نثني عليها ونلومها . كان الطعن بحقه والتبرير يختلطان . واعماله في ازدهار مطرد .

كان زولا طيبا . نكتشف في هذا العملاق روحه الطيبة

البسيطة الصافية . كان مثالا في الاخلاق والشيم . صوّر الرذيلة بيد جبارة فاضلة . لم يفلح تشاؤمه الظاهر في كثير من صفحاته ان يمحو تفاؤلا حقيقيا وايمانا صلبا بازدهار الفكر والعدالة . وكان يلاحق في رواياته التــي تعــد دراســات اجتماعية مجتمعا عاطلا تافها وارستقراطية خسيسة مضرة . لقد صارع شر الزمن : سلطة المال . كان ديمقراطيا ، لــم يُطرِ على الشعب يوما ما ، حاول جاهدا اظهار عبودية الجهل ومخاطر الخمر والكحول التي تسلبه ارادته وعقله وتجعله عرضة للبؤس والخزي والشقاء . لقد قاوم الشر الاجتماعي حيثما صادفه . تلك كانت كراهيته .

(خطاب القي على ضريح زولا .
صفحات حرة : ١٨ تشرين الاول ١٩٠٢)

هنري باربوس :

لم يكن محتالا . بل مولع بالمحسوس والمرئي ، مميــزا بالصراحة ومكرسا ذاته لوسائل عمل شاقة وبسيطة متأملا اروقة المصنع الذي يغص بالعمال والآلات الحديثة بعين مقاول لا بعين جامع معلومات . لم يهب شيئا .

(زولا ١٩٣٢)

جول لوماتر :

حول جرمينال :

لم ألمس في حياتي جماعات ضخمة تتحرك وتحيا كما في مثل هذه الرواية . ان الاديب يسرد ببراعة فائقة سلسلة

واسعة من اللوحات المحزنة التي تتراكم ، تصعد وتنتشر كمد البحر وجزره : نهار في المنجم ، ونهار بـين بيوت العمال ، اجتماع الثائرين ليلا ، نزهة الثلاثة آلاف بائس الحانقة في القرية ، اصطدام هذه الجموع الفقيرة بالجنود ، النزاع في الحفرة ..

لقد صوّر السيد زولا كل ما هو حتمي ، غير شخصي ولا يقاوم في هذه الدراما وعدوى الغضب وروح الجماعة في الزمرة .

(الصحيفة السياسية الادبية
١٩ آذار ١٨٨٥)

جول لوماتر :

تعود عظمة زولا الى عوامل عدة . من السخف ان تطري على عظمته كبنّاء ؛ غير ان دافع الاطراء ليس سخيفا . ادركنا منذ اتمام روغون ــ مكارت أي منذ نصف قرن تقريبا كم يندر البناؤون في مجال الادب . غزرت اعماله العبقرية والبسيطة . كانت تصبو الى اظهار مشقات المشاريع الكبـرى . وهؤلاء العمال المبتدئون الذين يجهلون استعمال ادوات البناء يجعلوننا نلتفت الى الاب زولا كما الى الاب هوغو اللذين يخضعان المادة لعبودية الانسانية بهدوء ويرفعان الجدران بتأن وصبر .

(زولا ومثاله ، ١٩٣٥)

جان كوكتو :

كثير من الفنانين اللامعين يظلون مجهولين . اعتبر ان

زولا شاعر كبير غنائي غير معروف . لقد صنفوه واعتبروه واقعيا .

يجب ان نقرأ اعماله ثانية . سنلاحظ ان جياد المنجم البيضاء ، الطفل الذي ينزف على صور « ابينال » ، والسكير الثمل والعربة الراقدة تحت الثلوج ، والفتاة التي تفرغ جيوبها في النفق ومقاطع اخرى من اعماله تنتمي الى روعة وصف الشعراء وتقترب من سحر « البؤساء » .

(وجود زولا)

توماس مان :

اميل زولا من خيرة ممثلي القرن التاسع عشر . لقد شبهته من قبل « بريتشارد وغنر » مما اثار ذعر مواطني الالمان الذي لا مبرر له ؛ اقمت علاقة بين روغون ـ مكارت و « حلقة نيبلنفن » . ألا توجد هذه العلاقة فعلا ؟ ليس ما يجمع بينهما هو الطموح وشغف الفنان بالضخم والصلب ولا الفكرة الملحمية المسيطرة فحسب ، بل المذهب الطبيعي الذي يبلغ الرمز ويقترن بالاسطورة . كيف يمكن انكار المذهب الرمزي والميل الاسطوري في ملحمة زولا الذي يرتقي بعالمه الى ما فوق الطبيعة ؟

(وجود زولا ، ترجمة لويز سرفيسن)

اوبتن سينكلير :

يعتبر عمل زولا من اروع ابنية الادب العالمي .

(وجود زولا)

جان روستان :

كان زولا رجلا صادقا برؤياه الشاسعة للاشياء ونقضه للشرف المزيف والفضيلة المزيفة ونفوره من المقالات التافهة والايديالية الكاذبة ، كان يؤمن بالحقيقة كما يؤمن غيره بالانسانية .

(وجود زولا)

ليون جوهو :

لن ادعي ان جرمينال ساهمت في سن قانون عام ١٨٩٢ عن حماية النساء والاطفال كما ساهمت « طبقة العم طوم » في محو العبودية في الولايات المتحدة ، غير انه لا يمكن انكار ان مئات الملايين من نسخ رواية زولا بيعت بين عام ١٨٨٥ وعام ١٨٩٢ في جميع انحاء فرنسا وجميع الاوساط اظهرت استشهاد العاملات والفتيان في قاع المنجم . ومن يجرؤ على القول ان احدا من الذين صوتوا لاول جملة من هذه الشريعة التاسعة : « يُحرم على النساء والفتيات القيام بأعمال المناجم » ولم تمر بخاطره ذكرى مأساة وعذاب ووفاة كاترين عاملة المنجم ؟

(وجود زولا)

اندريه جيد :

أجد لدى زولا الذي ما برحت قيمته واهميته مجهولتين ، ميلا للتحليل والتجريد الذي رغم رغبته بتصوير الواقع تقربه الى نوع من الرومنطيقية .

(الدفاع عن الثقافة)

بعض تواريخ في حياة زولا

١٨٤٠ الثاني من نيسان ميلاد زولا في باريس .
١٨٤٧ وفاة فرنسوا زولا .
١٨٥٠ الدكتور لوكاس : دراسة الوراثة الطبيعة الفلسفية والفيزيولوجية .
١٨٥٨ مدام زولا وولدها يغادران اكس ويقصدان باريس .
١٨٦٠ نيسان ، موظف في دائرة الجمارك .
١٨٦٢ شباط ، رئيس الاعلانات لدى هاشيت .
١٨٦٣ زواج زولا .
١٨٦٤ تشرين الاول ، صدور الكتاب الاول « قصص الى نينون » .
١٨٦٥ كلود برنار : مقدمة في دراسة الطب الاختباري .
١٨٧٠ ١٣ تموز ، برقية من امس ..
٤ ايلول ، سقوط الامبراطورية واعلان الجمهورية .
١٨٧١ ١٨ آذار ، تأليف الجماعة الادبية .
١٨٧٧ زولا يستقر في ميدان .
١٨٩٠ زولا يرفض ترشيحه في مجلس النواب .

١٨٩٤ ١٥ تشرين الاول ، توقيف القائد دريفس .
٢٢ كانون الاول ، النفي الى جزيرة الشيطان .
١٨٩٧ كانون الاول . زولا يصدر مقاله الاول الذي يتناول القضية في « الفيفارو » .
١٨٩٨ ١٣ كانون الثاني . نشر رسالة الى فليكس فور في « الفجر » تحت عنوان « أتهم » .
٢٣ شباط حكم على زولا بالسجن .
١٨ تموز ، غادر الى انكلترا .
١٨٩٩ ٥ حزيران ، عودة زولا الى فرنسا . اطلاق سراح دريفس .
١٩٠٢ ٢٩ ايلول ، وفاة زولا في باريس .
١٩٠٨ ٦ حزيران . نقل رفات زولا الى « البنتايون » .

تواريخ صدور اعماله

١٨٦٤ « قصص الى بينون .
١٨٦٦ اعتراف كلود .
١٨٦٦ ما اكرهه . احاديث ادبية وفنية .
١٨٦٦ داري (مجموعة مقالات) .
١٨٦٦ أمنية ميتة .
١٨٦٧ ادوار مانيه . دراسة ونقد .
١٨٦٧ ألغاز مارسيليا .
١٨٦٨ مادلين فيرا .
١٨٦٨ تريز راكين .
١٨٧١ ثروة الروغون .
١٨٧١ لاكوريه .
١٨٧٣ وسط باريس .
١٨٧٤ غزوة البلاسان .
١٨٧٤ الحطاب .
١٨٧٤ ورثة رابوردين . كوميديا بثلاثة فصول .
١٨٧٤ قصص جديدة الى نينون .
١٨٧٥ غلطة الاب موريه .
١٨٧٦ سعادته اوجين روغون .

١٨٧٧ الحانة .
١٨٧٧ صفحة حب .
١٨٧٨ مسرح : تريز راكين ؛ ورثة رابوردين ؛ برعم الزهر .
١٨٧٩ الجمهورية والادب (مجموعة مقالات) .
١٨٨٠ نانا .
١٨٨٠ الرواية الاختبارية . رسالة الى الشبيبة ؛ المذهب الطبيعي في المسرح ؛ المال في الادب ؛
١٨٨٠ امسيات ميدان .
١٨٨١ وثائق ادبية ، دراسات : شاتوبريان ، فكتور هوغو ، الفرد دو موسه ، تيوفيل غوتيه. الشعراء المعاصرون. علم الاخلاق في الادب .
١٨٨١ المذهب الطبيعي في المسرح . نظريات وامثلة (مجموعة مقالات) .
١٨٨١ ادباؤنا الدراميون (مجموعة مقالات) .
١٨٨١ الادباء الطبيعيون : بلزاك ، ستندال ، غوستاف فلوبير ، ادمون وجول دوغونكور ، الفونس دوديه .
١٨٨٢ بو ـ بويه .
١٨٨٢ قرية (مجموعات مقالات) .
١٨٨٣ سعادة السيدات .
١٨٨٣ القائد بيرل . كيف نموت . من اجل ليلة حب . في الحقول . العيد في كوكفيل . الطوفان .
١٨٨٤ لذة العيش .
١٨٨٤ نانتا . وفاة اوليفيه بكايه. مدام نيجون. جاك دامور.
١٨٨٤ مسرح ، ٣ مسرحيات مستوحاة من روايات وليام بوسناخ . الحانة ، نانا ، بو ـ بويه .

١٨٨٥ جرمينال .
١٨٨٦ العمل .
١٨٨٧ رونه . مسرحية بخمسة فصول .
١٨٨٧ الارض .
١٨٨٨ الحلم .
١٨٩٠ الحيوان البشري .
١٨٩١ المال .
١٨٩١ الحلم . دراما غنائية بأربعة فصول وثماني لوحات .
١٨٩٢ الانقلاب .
١٨٩٣ الدكتور باسكال .
١٨٩٣ الغزوة على الطاحونة . دراما غنائية بأربعة فصول .
١٨٩٤ لورد .
١٨٩٦ روما .
١٨٩٧ رسالة الى الشبيبة (قضية دريفس) .
١٨٩٧ مسيدور . دراما غنائية بأربعة فصول وخمس لوحات .
١٨٩٧ القرية الجديدة (مجموعة مقالات) .
١٨٩٨ رسالة الى فرنسا (قضية دريفس) .
١٨٩٨ « أتهم » . رسالة صدرت في ١٣ كانون الثاني من عام ١٨٩٨ في صحيفة « الفجر » .
١٨٩٨ باريس (المدن الثلاث) .
١٨٩٩ الاخصاب (الانجيل) .
١٩٠١ العاصفة . دراما غنائية بأربعة فصول .
١٩٠١ العمل (الانجيل) .
١٩٠١ الحقيقة (قضية دريفس) .

اعمال صدرت بعد وفاة زولا

١٩٠٣ حقيقة (الانجيل) .
١٩٠٥ الطفل الملك . كوميديا غنائية بخمسة فصول .
١٩٠٧ مراسلة : رسائل الى الشبيبة .
١٩٠٨ مراسلة . رسائل وفنون .
١٩١٦ الايام الاربعة . قصة غنائية بأربعة فصول وخمس لوحات .
١٩٢١ قصائد غنائية : مسيدور ، العاصفة ، الطفل ـ الملك ، سيلفانير ، لازار .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً : موكيالي ، بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت